قراءة نقدية لكتاب (روح التحرّر في القرآن) لعبد العزيز الثعالبي

د. فرج حمد سالم الزبيدي*

تاريخ وصول البحث: ٢٠١١/١٠/٢م تاريخ قبول البحث: ٢٠١٢/٣/٢٩م

ملخص

يتضمّن هذا البحث دراسة نقدية لكتاب (روح التحرّر في القرآن) لعبد العزيز الثعالبي (توفي١٩٤٤م)؛ هدفها الكشف عن أبرز آراء وأفكار مؤلفه, ومناقشتها والردّ عليها.

من أهم نتائج الدراسة: أنّ الثعالبي كان متأثّراً في جلّ آرائه في هذا الكتاب؛ بمبادئ التحرّر التي أطلقتها الثورة الفرنسيّة. وببعض أفكار مؤسسي مدرسة المنار. وأنّ أخطر ما يدعو إليه؛ تأويل القرآن تأويلاً متحرراً وفق مبادئ الثورة الفرنسية. والدعوة إلى وحدة أتباع الديانات السماوية الثلاث.

لذا؛ فإنّ أفكاره في كتاب (روح التحرّر في القرآن)؛ تُعدُّ من الأصول المبكّرة للفكر الحداثي المنحرف.

Abstract

This research includes a critical study of the book (the spirit of liberation in the Qur'an) to Abdul-Aziz Thaalbi (died 1944); aim to detect the most prominent views and ideas of its author, discussed and disproof it.

The most important results of the study: that Thaalbi was influenced by the bulk of his views in this book; the principles of freedom, which launched the French Revolution. And some ideas of the founders of Al Manar school. And that the most serious reason to it; construed liberally interpret the Qur'an according to the principles of the French Revolution. And the call to unite the followers of Three divine religions.

So; the ideas in the book (the spirit of liberation in the Koran); assets is one of the early modernist thought deviant.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين, والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين, وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

إنّ القرآن الكريم هو المصدر الأول للعقيدة والتشريع في الإسلام, وقد تكفّل الله ﷻ بحفظه من التحريف والتبديل والزيادة والنقص, قال تعالى: **(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)**[الحجر: ٩]. وقد قام النبي ﷺ وصحبه الكرام ﷺ بكلّ ما من شأنه تحقيق حفظه وصيانته, فحفظوه في الصدور وجمعوه في السطور. وكان النبي ﷺ يبين للصحابة ﷺ أحكامه ويفسّر لهم ما انغلق عليهم فهمه من الآيات. وتيسيراً على عامّة الأمّة؛ ييسّر الله تعالى – في كلّ عصر – ثلّة من العلماء للقيام بتفسير القرآن الكريم واستنباط أحكامه بقدر الطاقة البشريّة كلٌّ بحسب علمه وطاقته, ولم يدّع أحدٌ منهم أنّه أصاب بتفسيره مراد الله من كلامه على وجه الحقيقة, وإنّما اجتهادٌ وظنٌ راجح.

ومع هذا؛ فإنّ كثيراً من أعداء الإسلام الذين خفيت عليهم هذه الحقائق أو تعاموا عنها, لم يألوا جهداً بالتماس كلّ ما من شأنه القدح في القرآن الكريم, وإثارة الشبهات حول جهود علماء المسلمين في فهمه وتفسيره, قاصدين بذلك تشكيك المسلمين بتراثهم التفسيري والفقهي, وتنفيرهم من المفسرين والعلماء الذين سخّرهم الله ﷻ لخدمة كتابه العزيز, وتبصير المسلمين بدينهم.

* محاضر غير متفرغ، قسم أصول الدين، كلية الشريعة، جامعة آل البيت.

ولا غرابة في صدور مثل هذه الدعاوى الفاسدة والطعون الباطلة من متعصبي المستشرقين، الذين عُرفوا بطمس الحقائق وقلبها والعمل على الطعن في مصادر الإسلام والتشكيك بعلمائه؛ ليسهل عليهم صرف المسلمين عن الثقافة الإسلامية الصحيحة, وجرّهم لاتباع الثقافة الغربية العلمانية. لكنّ الذي يؤسف له؛ صدور مثل هذه الدعاوى من بعض مفكري المسلمين وكُتابهم, الذين انبهروا ببريق مدنية الغرب الزائفة, وأشربوا ثقافته العلمانية, فأصبحوا أبواقاً لها وسخّروا أقلامهم لخدمتها. وممن انجرّ وراء بعض هذه الدعاوى وأخذَ يُروج لها؛ المُفكّر والكاتب التونسي **عبد العزيز الثعالبي** في كتابه **(روح التحرر في القرآن)**.

إنّ الثعالبي ضمّن كتابه المذكور كثيراً من الآراء المنحرفة والأفهام السقيمة, مُسنداً إياها إلى آيات قرآنية, وهي في الواقع والحقيقة بعيدة عن مدلول تلك الآيات وبيانها. وكذلك حملَ على المفسرين والفقهاء بغير وجه حقّ, ونسب إليهم ما لم يقولوه.

وإذا علمنا؛ أنّ عبد العزيز الثعالبي يُعدُّ– عند كثير من كُتّاب ومثقفي هذا العصر– أحدُ أعلام الفكر الإسلامي الحديث, ومن المنافحين عن حقوق الأمّة, وأنّ كتاباته لها انتشارٌ وقبول في كثير من الأوساط الإسلامية والأوروبية؛ نُدرك أهميّة هذه الدراسة النقديّة, التي جاءت للرد على آرائه في الكتاب المذكور وتفنيدها.

سبب اختيار الموضوع: جاء اختيار هذا الموضوع للأسباب الآتية:

١. عدم وجود دراسة نقدية سابقة تتناول كتاب (روح التحرر في القرآن).
٢. بيان ما تضمّنه كتاب (روح التحرر) من آراء تفسيرية شاذة وتفنيدها والرد عليها.
٣. بيان موقف عبدالعزيز الثعالبي من قدامى علماء المسلمين عامّةً والمفسرين خاصّةً.

أهميّة الدراسة وأهدافها: تأتي أهمية الدراسة, من كونها:

- تبحث في كتاب قد ينطلي على البعض ما بُثّ فيه من أفكار منسوبة إلى القرآن الكريم وهو منها براء, خاصة وأنّ مؤلفه يُعدّ من رجال الإصلاح الإسلامي؛ ومحاط بهالة من المدح والتبجيل.
- تهدف الدراسة إلى إبراز أهم آراء وأفكار عبد العزيز الثعالبي في كتاب (روح التحرّر في القرآن), ونقدها وبيان ما لها وما عليها.
- إماطة اللثام عن حقيقة الدعوة الإصلاحية التي ينادي بها الثعالبي.

إشكاليّة الدراسة: يمكن صياغة إشكاليّة الدراسة بالأسئلة التاليّة:

- ما نسبة مصداقيّة المؤلف في إسناد آرائه إلى مرجعية الوحي.
- ما مدى تأثُّر الثعالبي بالأفكار التحرريّة للثورة الفرنسيّة أولاً, وبأفكار مؤسسي مدرسة المنار ثانياً, من خلال ما ضمّنه كتابه (روح التحرّر في القرآن) من آراء؟
- هل تُعدُّ آراء عبدالعزيز الثعالبي في كتابه (روح التحرّر في القرآن)؛ تأصيلاً مُبكّراً للفكر الحداثي المنحرف؟

منهج الدراسة: اعتمدت الدراسة على منهج الاستقراء, ومنهج الوصف والمقارنة.

خطة الدراسة: اقتضت الدراسة بناءها على خطة مكونة من: مقدمة, وتمهيد, وخمس مسائل, وخاتمة. وهي كالآتي:

المقدمة: تضمنت الحديث عن مكانة القرآن الكريم كمرجعية أولى للفكر الإسلامي, كما تحدثت عن سبب اختيار الموضوع, وأهميته, والمنهج المتّبع فيه.

التمهيد: تضمن التعريف بالمؤلف والكتاب, ونقد عنوان الكتاب.

المسألة الأولى: الإسلام والمرأة.

المسألة الثانية: علاقة المسلمين بالآخر.

المسألة الثالثة: وحدة أتباع الأديان السماوية.

المسألة الربعة: الجهاد في الإسلام.

المسألة الخامسة: التأويل المنشود للقرآن الكريم كما يراه الثعالبي.

الخاتمة: اشتملت على أهم النتائج.

راجياً من المولى ﷻ التوفيق والسداد, وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم. **(إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)**[هود : ٨٨].

تمهيد:

هذه لمحة تمهيدية موجزة؛ يتعرف القارئ من خلالها على الكتاب موضوع الدراسة وعلى مؤلفه.

أولاً: التعريف بالمؤلف:

هو عبد العزيز بن إبراهيم الثعالبي, نسبة إلى جده العالم السلفي المشهور, عبد الرحمن الثعالبي دفين الجزائر, الذي هاجر إلى تونس ترفعاً واعتزازاً أن يعمل للفرنسيين. ولد عبد العزيز الثعالبي في مدينة تونس الخضراء (١٤شعبان ١٢٩٣هـ) ١٨٧٤م, ونشأ وتعلم في كنف جده عبد الرحمن, حيث ألحقه بالكتّاب فحفظ فيه القرآن الكريم, ثم أتمّ الدراسة الأولية في البيت على مدرس خاص؛ علّمه النحو والعقائد والآداب, ثم دخل مدرسة باب سويقة الابتدائية في تونس بعد أن نال شهادتها, ثم التحق بجامع الزيتونة فقضى فيه سبع سنوات, وتخرج عام ١٨٩٦م حاملاً شهادة التطويع, وأخذ يتردد على المدرسة الخلدونية متبعاً الدراسات العالية, ولما تألف في تونس أول حزب لتحرير تونس ومقاومة الاستعمار الفرنسي عام ١٨٩٥م؛ إنضم إليه, ثم أسس الحزب الوطني الإسلامي وكتب في الصحف المحلية[١].

والراجح أنّ الثعالبي لم يتم دراسته في جامع الزيتونة, ولم يحصل على شهادة التطويع, وفي هذا الخصوص تقول (مسعودة بوالخضرة): "وهناك خلاف بين الذين أرّخوا له حول استكماله المرحلة التعليمية بجامع الزيتونة, فذهب بعضهم إلى أنّه حصل على شهادة (التطويع[٢]) وقال آخرون: إنّه لم يستكمل معارفه؛ لأنّ التعليم به كان غير موافق لما يتطلبه المجتمع التونسي[٣] من حيوية وتطور مع روح العصر. ورأى فريق ثالث: أنّه زاول فيه العلوم العربية والفقهية, النقلية والعقلية... وكان ينتقد كتب التدريس ودروس مشايخه, ويكثر من أسئلتهم والاعتراض عليهم, بما نفّر البعض منهم منه ومن مشاغبته.

وتواصل الكاتبة قائلة: لكنّ الذي أميل إليه؛ أنّه لم يكمل دراسته في جامع الزيتونة؛ لأنّ الذين قالوا بحصوله على الشهادة؛ ذكروا أنّ تاريخ تخرجه كان سنة ١٨٩٦م, في حين أنّه أسس جريدة (سبيل الرشاد) سنة ١٨٩٥م, ولم يكن الجمع ممكناً بين الدراسة والتفرغ لتوجيه وتحرير وإدارة هذا المشروع الصحفي, إضافة إلى أنّه تعرّف ببعض المبشرين الإنجليز البروتستانت, وبهرهم بذلاقة لسانه حتى صار محلّ إكرامهم واحترامهم, فبلغ ذلك مشايخ الجامع؛ فغضب عليه البعض ونفر منه الباقي حتى سئم منهم وسئموا منه, والذي يعزز الرأي بعدم تخرجه من الجامعة الزيتونية, أنّه لم يزاول التدريس بها أبداً؛ كما أنّ محنته الأولى مع السجن؛ كانت بسبب اتهامه بالزندقة التي اتهمه بها رجال الدين[٤] أنفسهم,

ولو قُدّر له أن يحمل شهادة (التطويع)؛ لكان الإجراء الأول الذي اتُخذ ضده هو سحبها منه, وإسقاط حقّه في العمل بها"[٥].

سافر الثعالبي إلى عدة بلدان إسلاميّة وأوروبيّة. والتقى بعدد من رجال الفكر الإصلاحي في عصره؛ كعبد الرحمن الكواكبي, وجمال الدين الأفغاني, ورشيد رضا, وحسن الطويراني, وفي القاهرة تتلمذ على يدي الشيخ محمد عبده في التفسير والمنطق[٦]. وحال عودة الثعالبي إلى تونس؛ بدأ يدعو إلى التطور والحرية, وينشر الأفكار الإصلاحية التي كانت تروجها مجلة المنار. وفي ذلك يقول (محمد الفاضل بن عاشور): "وبلغ السيل الزبى سنة ١٩٠١م, لما ظهر بمدينة تونس شابٌ كان من طلبة جامع الزيتونة والخلدونية, المنقطعين للشيخ سالم بوحاجب والأستاذ البشير صفر, أصدر جريدة سماها (سبيل الرشاد), لم يلبث أن عطّلها وسافر إلى الآستانة ومصر, وعاد منهما غريب الشكل والنزعة والمنطق والقلم, يتكلم بأفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده, ويعجب بالكواكبي وحسن حسني الطويراني وعلي يوسف, ويدعو إلى التطور والحرية وفهم أسرار الدين وأسرار الوجود, ويغرب بمقالات الحكماء والطبيعيين, ذلك هو الشيخ عبدالعزيز الثعالبي"[٧].

أُبعد الثعالبي من تونس سنة ١٩٢٣م, فسافر إلى إيطاليا ففرنسا, ثم إلى مصر فالحجاز واستقر به المقام في العراق, حيث انتُدب للتدريس بجامعة آل البيت ببغداد بين ١٩٢٥م و١٩٣٠م, ومثّل العراق في مؤتمر الخلافة بمصر سنة ١٩٢٥م, وشارك في تأسيس المؤتمر الإسلامي في القدس سنة ١٩٣١م. ترك العراق سنة ١٩٣١م إلى مصر, ومنها إلى الصين فالهند. وعاد إلى تونس سنة ١٩٣٧م, إلى أن توفي بها في تشرين الأول عام ١٩٤٤م[٨].

ثانياً: التعريف بكتاب (روح التحرر في القرآن):

أمّا الكتاب الذي نحن بصدد دراسته (روح التحرر في القرآن) "فقد صدر بباريس سنة ١٩٠٥م. وذلك إثر خروج الثعالبي من السجن بتهمة الزندقة, والكتاب يحمل أسماء ثلاثة مؤلفين, هم على التوالي: سيزار بن عطار, والهادي السبعي, وعبد العزيز الثعالبي. والذي يغلب على الظن- حسب الوثائق التاريخية المتوفرة- ؛ أنّ الثعالبي هو الذي حرّر النّص العربي للكتاب, ونقله إلى اللغة الفرنسية المترجم الهادي السبعي, وأعاد صياغة النّص الفرنسي المحامي ابن عطار, الذي كان يجهل اللغة العربية"[٩].

وترجم الكتاب للعربية (حمادي السّاحلي), وقامت دار الغرب الإسلامي ببيروت بطباعة هذه الترجمة للمرة الأولى سنة ١٩٨٥م, ويتألف الكتاب من (١٢٢) صفحة من القطع الصغير. ويتضمن الكتاب مدخلاً واثني عشر فصلاً[١٠], "حمّل فيه المؤلف على المفسرين, وحمّلهم مسؤولية تعطيل الحضارة الإسلامية"[١١]. وذلك من خلال عرض وجهة نظره في بعض القضايا والعلوم الإسلامية, نحو: المرأة في الإسلام, العلاقات بين المسلمين والنصارى, الإسلام دين البشرية جمعاء, تأويل القرآن, الجهاد في الإسلام, وغير ذلك من الأفكار التي تحتاج إلى دراسة ومناقشة ونقد.

هذا وقد قام بمراجعة الكتاب والتعليق عليه في الحواشي السيد: (محمد المختار السلامي), حيث وجه النقد لبعض أفكار الثعالبي. ولكن ليس بالمستوى الكافي لإماطة اللثام عن جلّ آراء الثعالبي المنحرفة التي ضمّنها الكتاب.

ثالثاً: ما يؤخذ على عنوان الكتاب: أول ما يلفت الانتباه في الكتاب عنوانه, فعبارة (روح التحرّر في القرآن) تدعو ابتداءً إلى الريبة, فلفظ (التحرّر) المشتق من الحريّة؛ يعطي معنى الانفلات من كل قيد وعدم الانضباط. فـ "التحرير: جعل الإنسان حراً. وطلب الحرية: رفع اليد عن الشيء من كل وجه"[١٢]. والمؤلف – بحسب مضمون كتابه- لا يقصد من هذه اللفظة المعنى القرآني للحريّة؛ وهو الانعتاق من العبودية لغير الله تعالى, أو الانعتاق من الرق كما يدلّ عليه قوله

تعالى: **(فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ)**[المجادلة: ٣]. وإنّما يقصد من التحرّر: التفلت في الفكر والسلوك. وهذا غير مراد في القرآن الكريم ألبتة, فالقرآن الكريم جاء ليضبط وينظم النشاط الحيوي البشري وَفق الأحكام الشرعية الناظمة للسلوك في جميع شؤون الحياة. لذا؛ فالعنوان مُشكل, وليس له علاقة بما يُفهم من محتوى ومقصد القران الكريم في هداية البشر.

المسألة الأولى: الإسلام والمرأة:

خصّص المؤلف الفصل الثاني من الكتاب للحديث عن المرأة المسلمة, فدعا فيه إلى تحرير المرأة من مجمل القيود التي وضعها المفسرون والفقهاء – بحسب رأيه– . وأهم هذه القيود التي يجب على المرأة التحرر منها لتحقّق شرط التقدم والرقي والصلاح؛ قيدان: **الأول:** الحجاب. **والثاني:** الانزواء في المنزل وعدم الاختلاط. يُلخص ذلك في قوله: "يجب على النساء كشف وجوههنّ, ولا ينبغي لهنّ الانزواء في بيوتهنّ والاحتجاب عن الأنظار"(١٣).

أمّا بالنسبة لمسألة الحجاب فإنّ الثعالبي يرى أنّه "من واجب المرأة أن تترك وجهها مكشوفاً"(١٤). فنساء المسلمين لم يرتدين الحجاب تديناً؛ وإنّما تقليداً وتشبهاً, ذلك أنّ "النساء المسلمات اللائي كنّ يتجولن في كل مكان سافرات, قد رأين من اللائق ستر وجوههن مثل النساء الفارسيات"(١٥). وهو يعتبر خلع الحجاب منتهى الرقي والتقدم, وأنّ تطبيق المجتمع للإسلام كما كان في أول عهده؛ منوط بخلع الحجاب؛ لأنّ "خلع ذلك الحجاب معناه تحرير المرأة المسلمة وإشهار الحرب على التعصب والجهالة, ونشر أفكار التقدم والحضارة, وصيانة المصالح العليا للأسرة والتراث العائلي"(١٦). وتالياً أدلّة الثعالبي التي أسند إليها مغالطاته بشأن الحجاب, وسأناقش كلّ دليل بعد ذكره مباشرة:

أولاً: أورد رواية عائشة– رضي الله عنها– : "أنّ أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب شامية رقاق, فأعرض عنها ثم قال: ما هذا يا أسماء؟ إنّ المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرى منها إلا هذا وهذا, وأشار إلى وجهه وكفيه"(١٧). واستدلّ بهذا الحديث على عدم جواز ستر وجه المرأة. قال: "فهذا الحديث يدلّ بكلّ وضوح على أنّه من الخطأ أن تستر المرأة المسلمة وجهها"(١٨).

المناقشة: هذا استدلال ليس في محله, فالحديث لا يفيد ذلك ألبتة, إنّما جاء ليبين حدود حجاب المرأة المسلمة, وأنّه لا يجوز أن يظهر من جسمها على الرجال الأجانب– حال بلوغها – ما هو زيادة على الوجه والكفين. ثمّ إنّ الثعالبي لم يحدد ما المقصود من الحجاب الذي عناه, ولم يُعرِّفه بشكل دقيق. والظاهر أنّه قَصَر حدود الحجاب على تغطية الوجه. علماً أنّ تغطية الوجه ليست حجاباً, وستر الوجه – على الرأي الراجح– ليس واجباً في حقّ المرأة المسلمة؛ إنّما هو من باب المباح, فمن أرادت أن تستر وجهها فلها ذلك ولا شيء عليها, ومن أرادت إظهار وجهها فلها ذلك ولا شيء عليها أيضاً. والحديث المذكور يبين مفهوم الحجاب الشرعي بشكلٍ دقيق, فيفيد أنّ الوجه والكفين ليسا بعورة؛ أي غير محجوبين, فلا يدخلان في مفهوم الحجاب الواجب الالتزام؛ الذي هو ستر كامل جسم المرأة بما لا يصف ولا يشف ما عدا الوجه والكفين. قال **العظيم آبادي:** "والحديث فيه دلالة على أنّه ليس الوجه والكفان من العورة, فيجوز للأجنبي أن ينظر إلى وجه المرأة الأجنبية وكفيها"(١٩).

ثانياً: أوردَ الآيتين من سورة النور: **(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ* وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا....)**[النور: ٣١ ٣٢]. وادّعى بأنّ الفقهاء والمفسرين؛ استدلالاً بهذه الآيات؛ قد أجمعوا على تحريم كشف وجه المرأة أمام الأجانب, فأدخلوه في الزينة الواجب سترها. فقال: "هذا وإنّ جميع الفقهاء والعلماء والمفسرين الذين عالجوا هذه المسألة, وفرضوا تحريم إظهار المرأة المسلمة لوجهها؛ قد استندوا إلى هاتين الآيتين من سورة النور,... ثمّ يتابع متسائلاً: فكيف فسّر الفقهاء والعلماء والمفسرون المسلمون عبارة (زينة)؟ لقد قالوا إنّها تعني (الوجه), وهكذا؛ فبواسطة هذا التفسير وبالأحرى

هذا التأويل؛ بلغوا غايتهم بسهولة؛ فحرّموا على المرأة كشف وجهها أمام أي شخص آخر, غير الأشخاص المذكورين في الآيتين السالفتين"[٢٠].

المناقشة: لننظر في أقوال أئمة التفسير في معنى الزينة الظاهرة المستثناة من عدم الإبداء والستر, وذلك عند تفسيرهم لقوله تعالى: **(وَلا يُبْدِينَزِينَتَهُنَّ إلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)**[النور: ٣١]. لنستبين حقيقة زعم الثعالبي.

قال **الطبري** في معنى الزينة الظاهرة: بعد أن ذكر الروايات في هذه الآية: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: قول من قال: الوجه والكفان"[٢١]. وقال **الزمخشري:** "فإن قلتَ: لم سومح مطلقاً في الزينة الظاهرة؟ قلتُ: لأنّ سترها فيه حرج, فإنّ لمرأة لا تجد بداً من مزاولة الأشياء بيديها, ومن الحاجة إلى كشف وجهها, خصوصاً في الشهادة والمحاكمة والنكاح, وتضطر إلى المشي في الطرقات وظهور قدميها وخاصة الفقيرات منهن, وهذا معنى قوله: **(إلاّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا)** يعني: إلاّ ما جرت العادة والجِبلّة على ظهوره والأصل فيه الظهور"[٢٢].

وقال **القرطبي:** "قال سعيد بن جبير وعطاء والأوزاعي: الوجه والكفان والثياب... فلا تبدي المرأة من زينتها إلا ما ظهر من وجهها وكفيها"[٢٣]. وقال **أبو بكر الجصاص:** "ظاهره يقتضي إباحة إبداء الزينة للزوج ولمن ذكر معه من الآباء وغيرهم, ومعلوم أنّ المراد موضع الزينة وهو الوجه واليد"[٢٤]. وقال **ابن عاشور:** "والزينة قسمان خلقية ومكتسبة. فالخلقية: الوجه والكفان أو نصف الذراعين, والمكتسبة: سبب التزين من اللباس الفاخر والحلي والكحل والخضاب بالحناء...والظاهر من الزينة الخلقية ما في إخفائه مشقة كالوجه والكفين والقدمين...، وجمهور الأئمة على أنّ استثناء إبداء الوجه والكفين من عموم منع إبداء زينتهن؛ يقتضي إباحة إبداء الوجه والكفين في جميع الأحوال"[٢٥].

وهكذا نجد الاتفاق بين المفسرين؛ على اعتبار أنّ الوجه من الزينة الظاهرة التي أباح الله للمرأة إظهارَها, ولم يقل أحدٌ من المفسرين الذين يعتدُّ بقولهم: بأنّ وجه المرأة من الزينة التي يجب إخفاؤها ويحرم إظهارها. وكذلك لم يقصر أحدٌ من المفسرين عبارة (زينة) الواردة في الآية على الوجه فقط كما زعم الثعالبي. ولو راعى المؤلف أبسط قواعد التفسير؛ لعلمَ أنّ الوجه والكفين وقعا في حيّز الاستثناء من النهي عن الإبداء.

ثالثاً: ادعي الثعالبي بأنّ آراءه التحررية بشأن الحجاب؛ تستند إلى مرجعيتين؛ الأولى: مرجعية المجتمع الإسلامي في عهد النبوة. والثانية: مرجعية النموذج الغربي المعاصر في الحياة, يقول: "وهو – أي خلع الحجاب– يعني في آخر الأمر؛ إعادة تركيب المجتمع الإسلامي كما كان في عهد الرسول ﷺ وأصحابه ﷺ أي مثل المجتمع الأوروبي"[٢٦].

المناقشة: هذا كلام متهافت لا يستحقّ الردّ, فأيّ مجتمعٍ أوروبي هذا الذي يشبهه الثعالبي بالمجتمع النبوي! وأيّ قيمٍ إنسانية راقيةٍ كانت مطبقة في ذلك المجتمع لينادي الثعالبي بتعميمها على المسلمين! حتى المنصفين من المستشرقين؛ لم يذهبوا إلى ما ذهب إليه الثعالبي من تجاهل لحقيقة البون الشاسع؛ بين ما كان عليه المجتمع النبوي من الرقي والتحضر الإنساني, والتحلي بمكارم الأخلاق والعادات, خاصّةً فيما يتعلق بصون كرامة المرأة واحترام إنسانيتها, وحماية حقوقها وإنقاذها من ظلم الجاهلية وتعسفها, وبين ما كان عليه المجتمع الأوروبي آنذاك, من امتهانٍ للمرأة, واحتقارٍ لإنسانيتها.

"ففي سنة ٨٦م أصدر الفرنسيون قراراً ينصّ على أنّ المرأة إنسان؛ إلا أنّها خُلقت لخدمة الرجل, ويعتبر هذا أهم إنصاف للمرأة منحها إياه الشعب الفرنسي بعد ميلاد النبي ﷺ بخمس عشرة سنة"[٢٧]. و"لمّا قامت الثورة الفرنسية – التي يعتبرها الثعالبي نموذجاً راقياً يجب أن يُحتذى– وأعلنت تحرير الإنسان من العبوديّة والمهانة, لم تشمل بحنوها المرأة؛ فنصّ القانون الفرنسي... على أنّ القاصرين هم: الصبي والمجنون والمرأة, واستمر ذلك حتى عام ١٩٣٨م"[٢٨]. و"في إنكلترا بقيت النساء حتى عام ١٨٥٠م غير معدودات من المواطنين. وظلّ حتى عام ١٨٨٢م ليس لها حقوق شخصيّة,

ولا حقّ لها بالتملّك"[٢٩]. وكان "القانون الإنجليزي عام ١٨٠٥م؛ يبيح للرجل بيع زوجته وقد حدّد ثمنها بست بنسات"[٣٠].

بينما كانت– ولا تزال – المرأة في المجتمع المسلم تحظى بكلّ تقديرٍ واحترام, ذلك المجتمع الذي استمدّ فكره عن المرأة من قوله تعالى: **(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)**[النحل: ٩٧], وقوله: **(لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ)**[البقرة: ٢٢٨]. وقول النبي ﷺ: "إنّما النساء شقائق الرجال"[٣١]. وقوله ﷺ: "ألا واستوصوا بالنساء خيراً"[٣٢]. وأمثلة ذلك التكريم من واقع حياة المسلمين تفوق الحصر. وتالياً سأذكر مقتطفات من كلام الغربيين أنفسهم؛ تشهد باتساع الفارق الحضاري والمدني في شتى المجالات, بين واقع المرأة في المجتمع الأوروبي وواقعها في المجتمع الإسلامي.

ففي مجال الاحترام والحريّة المسؤولة؛ يقول الفرنسي **مارسيل بوازار**: "كانت المرأة تتمتع بالاحترام والحريّة في ظل الخلافة الأموية بأسبانيا, فقد كانت يومئذ تشارك مشاركة تامّة في الحياة الاجتماعية والثقافية,... وإنّ الشعراء المسلمين هم الذين علموا مسيحي أوروبا عبر أسبانيا احترام المرأة"[٣٣].

وفي مجال التعليم يقول **ول ديورانت**: "وكانت البنات يذهبن إلى المدارس كالأولاد سواء بسواء، ونبغ عدد من النساء المسلمات في الأدب والفن"[٣٤].

ولتقرير صورة المفاضلة بين مكانة المرأة في الإسلام ومكانتها في الحضارة الغربية بشكل عام وشمولي؛ يقول **غوستاف لوبون**: "إنّ حالتهنّ– أي النساء المسلمات– الحاضرة أفضل من حالة أخواتهن في أوربة"[٣٥].

فعجبٌ للثعالبي؛ كيف تأتى له استمراء المقارنة بين مجتمع النبوة والمجتمع الأوروبي؛ مع هذه الاعترافات الصريحة التي تكشف عن بونٍ حضاريٍّ شاسع؛ فيما يخصّ القيم الاجتماعية المتعلّقة بمكانة المرأة وحقوقها!! وعلى كلّ حال؛ فقد تبين بشكلٍّ لا لبس فيه؛ عدم حقيّة الثعالبي في تجنيه على المفسرين والفقهاء, وتهافت ما ذهب إليه من أنّ الحجاب الشرعي؛ سببٌ في تخلف المرأة المسلمة, ومانعٌ لها من مزاولة الأنشطة الإنسانية الراقية. فـ"لم يكن الحجاب مانعاً في حياة النبي ﷺ أن تخرج المرأة مع الرجال إلى ميادين القتال, ولا أن تشهد الصلاة العامّة في المساجد, ولا أن تزاول التجارة ومرافق العيش المحلّلة للرجال والنساء على السواء"[٣٦]. هذا هو الأثر الحقيقي لواقع الحجاب الشرعي على حياة المرأة المسلمة, "أمّا ما زاد عن ذلك من قيود الاحتجاب عن المجتمع, أو إخفاء الجسم كلّه من الفرق إلى القدم في أرديةٍ تعوق النشاط وتحجب الرؤية وتثقل الحركة, فسواء دخل في مجال الحيطة والورع, أو تمّ الأمر به والتداعي إليه بدافع التزيد والابتداع؛ فهيهات أن تكون مبادئ الشريعة الإسلامية هي المسؤولة عنه أو المحتملة لنتائجه"[٣٧].

أمّا بالنسبة لدعوة الثعالبي إلى تحرير المرأة من قيد الانزواء في المنزل ووجوب خروجها للاختلاط العام, حيث يرى أنّه "لا شيء يجبرها على البقاء محبوسةً عن الأنظار, وأنّه يجوز لها مثل المرأة الأوروبية, الدخول والخروج وقضاء شؤونها؛ بدون أي خطر على المجتمع الإسلامي"[٣٨]. فقد عزا الثعالبي للموروث التفسيري؛ إيجاب عدم جواز خروج المرأة من البيت, قال: "وسننظر الآن في النصوص التي استند إليها المفسرون لزج المرأة المسلمة في أعماق البيوت, وجعلها في عزلة تامة عن الحياة"[٣٩]. والنصوص التي عناها هي قوله تعالى: **(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً, وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى)**[الأحزاب:٣٢–٣٣]. وقوله: **(وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ...الآية)** [الأحزاب: ٥٣]. وقوله: **(لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ ...الآية)**[الأحزاب: ٥٥].

ولم يكتف الثعالبي باتهام المفسرين بقوله "من حقّنا عند قراءة تلك التأويلات أن نقول: إنّ التفاسير المذكورة لم يسدها حسن النّظر"(٤٠), بل اجتهد فجعل أحكام هذه الآيات لا يتعدى لغير أمهات المؤمنين من النساء, "فهل هذه التوصيات الموجهة لنساء النبي تهم بقية النساء؟ كلا بالتأكيد... لأنّها موجهة لنساء النبي دون غيرهن"(٤١).

ولتفنيد مزاعم الثعالبي نقول: إنّ المفسرين لم يستدلوا بهذه الآيات– كما زعم– على منع المرأة من الخروج من البيت بشكل مطلق, هذا من جهة. ومن جهة أخرى؛ فإنّ هذه الآيات ولو كان الخطاب بها خاصاً لنساء النبي ﷺ إلاّ أنّه لا يمنع دخول غيرهن من المسلمات في عموم الخطاب, خاصةً أنّها تتحدث عن آداب رفيعة ينبغي على جميع المسلمات التحلي بها. قال **القرطبي**: "معنى هذه الآية **(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)**[الأحزاب: ٣٣]؛ الأمر بلزوم البيت, وإن كان الخطاب لنساء النبي ﷺ؛ فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى, هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء, كيف والشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن والانكفاف عن الخروج منها"(٤٢). وقال **ابن عاشور**: "وهذا الحُكمُ وجُوبٌ على أُمَّهات المؤمنِينَ وَهو كمَالٌ لسائرِ النِّساءِ"(٤٣).

والذي يبدو؛ أنّ الثعالبي خلط بين مفهوم الاختلاط العام المباح ضمن الضوابط الشرعية؛ وبين مفهوم الخلوة المحرمة شرعاً, فأتى من السنّة بدليل تحريم الخلوة؛ ليقول إنّ المفسرين والفقهاء استدلوا به على تحريم خروج المرأة من المنزل! ويتبين هذا الخلط من قوله: "فبالنسبة إلى سائر النساء المسلمات لا توجد في القرآن أيّةُ آية تفرض عليهن الخروج محجوبات، ولا يوجد بخصوص موقف النساء إزاء الرجال إلاّ حديث واحد منقول عن الرسول ﷺ, ولكنّ ذلك الحديث قد أُوّل كالعادة تأويلاً خاطئاً, فقد روى بعض أهل الحديث أنّه ﷺ قال ما معناه: لا يجوز للمرأة أن تبقى على انفراد إلا مع أحد المحارم"(٤٤). وللردّ على هذه الادعاءات لا بدّ من التفصيل الآتي:

أولاً: قوله (لا توجد في القرآن أيّةُ آية تفرض عليهن الخروج محجوبات), هذا دليلٌ على جهل المؤلف بواقع آيات الأحكام في القرآن الكريم, فهناك أكثر من آية تتعلّق بتشريع الحجاب وبيان مفهومه, منها: قوله تعالى: **(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ ...الآية)**[سورة النور: آية ٣١]، وقوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ)**[سورة الأحزاب: آية ٥٩]. وواضح أنّ هذه الآيات جاءت لتبيّن ما ينبغي أن يكون عليه حال النساء المسلمات من آداب اللباس والحشمة, خارج البيت أو في حال وجود رجال من غير المحارم داخل البيت.

ثانياً: ليس صحيحاً أنّ السنّة النبوية لا يوجد بها إلا حديث واحد بخصوص موقف النساء إزاء الرجال, فهناك أحاديث كثيرة تتعلّق بتنظيم علاقة الرجال بالنساء من حيث ضوابط الاختلاط وآدابه, وتبين موقف كلّ منهما تجاه الآخر, سواء في الحياة الخاصة (داخل البيت) أو في الحياة العامة (خارج البيت). نذكر منها على سبيل المثال: عن عمر بن الخطاب ﷺ أنّ النبي ﷺ قال: "ألا لا يخلونّ رجلٌ بامرأة فإنّ ثالثهما الشيطان"(٤٥). وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قام على المنبر فقال: "لا يدخلَنّ رجل بعد يومي هذا على مغيبة إلاّ ومعه رجل أو اثنان"(٤٦).

ثالثاً: أنّ مسألة خروج المرأة المسلمة من البيت بدون ضوابط متى شاءت وكيف شاءت كالمرأة الأوروبية! كلامٌ لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا إجماع. فأحكام النظام الاجتماعي في الإسلام؛ نظّمت حياة المرأة الخاصة والعامة, ومنها مسألة خروجها من البيت أو بقائها فيه. فنظرة الإسلام لوظيفة المرأة الرئيسية في الحياة؛ أنّها أمّ وربة بيت وعرضٌ يجب أن يُصان, وهي مكفولة النفقة, سواء أكانت أماً أم بنتاً أم زوجة أم أختاً أم غير ذلك. لذا؛ فقد جعل الإسلام خروجها من البيت لممارسة شؤون الحياة العامة متعلّقٌ بإذن وليها, وكذلك لا تخرج لسفر فوق يوم وليلة إلا مع مَحرَم, وذلك لحكمة اقتضاها الشارع الحكيم؛ مؤداها الحفاظ على كرامة المرأة وصوناً لأنوثتها من عبث العابثين وألسِنة السوء. ولم يمنع

الإسلام المرأة أن تخرج من بيتها فيما هو مباح إذا أذن لها وليُها في ذلك. ولم يقل أحدٌ من العلماء بوجوب مكوث المرأة في البيت وتحريم خروجها منه.

يدلّ على ذلك واقع حياة المسلمين منذ صدر الإسلام إلى يومنا هذا, فقد كانت النساءُ زمن النبي ﷺ وصحابته الكرام؛ يزرنَ الأهل والجيران بأذن أوليائهن, ويحضرن الصلاة في المسجد, ويخرجن إلى الأعمال الزراعية والتجارية, بل يشاركن في الغزوات. عن أنس بن مالك ﷺ قال: "كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا, فيسقين الماء ويداوين الجرحى"(٤٧).

فالأمر الشرعي بقرار المرأة في البيت, زوجة كانت أو غير زوجة, لا يعني أنّ المرأة لا يجوز لها الخروج من البيت مطلقاً, فهذا لم يقل به أحدٌ من أهل العلم. فيجوز للمرأة الخروج من البيت للحاجة الشرعية, قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والأمر بالاستقرار في البيوت لا ينافي الخروج لمصلحة مأمور بها, كما لو خرجت للحج والعمرة, أو خرجت مع زوجها في سفره, فإنّ هذه الآية **(وَقَرْنَ فِيبيُوُتكِنُّ)** قد نزلت في حياة النبي ﷺ, وقد سافر بهن رسول الله ﷺبعد ذلك, كما سافر في حجة الوداع بعائشة- رضي الله عنها- وغيرها, وأرسلها مع عبد الرحمن أخيها, فأردفها خلفه وأعمرها من التنعيم(٤٨))"(٤٩). وعليه؛ فإنّ خروج المرأة من بيتها بأذن وليها لحاجة مشروعة وبدون تبرج؛ مباح ولا شيء فيه.

ومن الجدير بالذكر؛ أنّ المنصفات من نساء أوروبا اللواتي اطلعنَ على واقع المجتمعات الإسلامية؛ يغبطن المسلمات على ما أولاهنّ الإسلام من عنايةٍ وتقديرٍ ومكانة اجتماعيّة مرموقة, فقد "كتبت اللادى ماري مونتكاد, زوجة السفير الإنكليزي في تركيا إلى شقيقتها تقول: (يزعمون أنّ المرأة المسلمة في استعباد وحجر معيب, وهو ما أودّ تكذيبه,... ولا أبالغ إذا قررت لك: إنّ المرأة المسلمة وكما رأيتها في الآستانة أكثر حرية من زميلاتها في أوروبا)"(٥٠). و"تقول الفرنسيّة الشهيرة **(مريم هاري)** في خطاب وجهته إلى نساء المسلمين في كتابها ''الأحاريم الأخيرة'': (يا أخواتي العزيزات...لا تحسدننا نحن الأوروبيات ولا تقتدين بنا, إنّكنّ لا تعرفنَ بأيّ ثمن من عبوديتنا الأدبية اشترينا حريتنا المزعومة... إنّي أقول لكن إلى البيت... إبقين أُمّهات... كنّ نساء قبل كل شيء، فقد أعطاكنّ الله كثيراً من اللطف الأنثوي، فلا ترغبن في مضارعة الرجال... ولا تجتهدن في مسابقتهم... ولترضَ الزوجة في التأخر عن زوجها وهي سيدته، ذلك خيرٌ من أن تساويه وهي تكرهه)"(٥١). ويقرّر هذه الحقيقة المستشرق **غوستاف لوبون** بقوله: "وأنّ الإسلام حسّن حال المرأة كثيراً, وأنّه أول دينٍ يرفع شأنها, وأنّ المرأة في الشرق؛ أكثر احتراماً وثقافةً وسعادةً منها في أوربة"(٥٢). وقبل الانتقال إلى مسألة أخرى؛ أودّ أن أشير إلى بعض الأخطاء التي وقع بها المؤلف خلال تناوله لموضوع المرأة, منها:

أولاً: انتقاده- غفر الله له- بعض أحكام القرآن الكريم في حقّ المرأة, فيقول مثلاً: "لا يمكن تحميل الأنثى انتقاصاً من الحظ زائداً على ما كتبه الله من أنّ ميراثها هو نصف ميراث الذكر"(٥٣). أقول: إنّ ما كتبه الله تعالى هو منتهى العدل, وحاشا لله أن ينتقص من حقّ مخلوق لحساب آخر, ولا يجوز الاعتراض على حكم الله وعدله بأي وجه. قال تعالى: **(وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً)**[النساء: ٣٢]. علماً بأنّه في بعض الحالات يكون نصيب الأنثى من الميراث أكثر من نصيب الذكر.

ثانياً: عزا المؤلف سبب وجود الشعر الماجن في الأدب الإسلامي؛ إلى عدم ظهور النساء المسلمات سافرات, يقول: "الشعراء والأدباء الذين لم يعد في استطاعتهم النظر إلى وجوه النساء؛ قد اضطروا بطبيعة الحال في كتاباتهم أو قصائدهم, إلى وصف جمال الفتيان, معرضين بأنفسهم إلى ارتكاب المحارم, أو التغني بجمال أمهاتهم أو أخواتهم"(٥٤).

هذا ادعاء لا واقع له, فلا يوجد في الأدب الإسلامي, قصائد شعرية أو منثورات أدبية تتضمن التغني بجمال الأمهات أو الأخوات, فهذه أمورٌ ينفر منها الطبع السليم أصلاً. أما وصف جمال الغلمان والشعر الماجن, فلا ننكر وجود بعض القصائد على لسان أبي النواس وأمثاله, وأغلبها منحول, وعلى كل فهي حالات شاذة, والشاذ لا يقاس عليه.

وفي ختام هذه المسألة؛ يظهر لنا جلياً "أنّ الثعالبي قد تأثر بالأفكار الواردة في كتاب قاسم أمين **(تحرير المرأة)** الذي صدر سنة ١٨٩٩م, أي قبل ست سنوات من صدور كتاب (روح التحرر في القرآن), وليس من المستبعد أن يكون قد تعرّف على قاسم أمين, أثناء إقامته الأولى في القاهرة من سنة ١٨٩٧م- ١٩٠٢م"[٥٥].

المسألة الثانية: علاقة المسلمين بالآخر

تطرّق الثعالبي في الفصل الرابع[٥٦] من الكتاب؛ للعلاقة بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب, فبدأ حديثه عن مرحلة الحروب الصليبية, محمّلاً المفسرين وزر سوء العلاقة بين المسلمين والنصارى, ويتهمهم بتحريف النصوص بقصد إذكاء العداوة بين المسلمين وغيرهم. فيقول: "وبذلك ندرك مدى الغبطة والحماس اللذَين كان المسلمون يتقبلون بهما كلّ تفسيرٍ يعمد إلى تحريف النصوص[٥٧], وإبراز ما تعبّر عنه من حقد وتعصب تجاه غير المسلمين"[٥٨].

ويعزو إلى الموروث التفسيري؛ زرع الأحقاد والضغائن في قلوب المسلمين تجاه الصليبيين وغيرهم, "فلا غرابة أن يواصل بعض المفسرين عملهم طوال تلك الحروب, ويعتبرون المبادىء المقامة على الضغينة والتعصب بمثابة الحقائق الدائمة التي لا ريب فيها بالنسبة للدين الإسلامي"[٥٩]. ويتحمّل ذلك الموروث؛ جريرة التأصيل لظاهرة كُره الآخر عند المسلمين خاصة النصارى! "فإنّ بعض المفسرين والعلماء والفقهاء منذ حوالي عشرة قرون؛ قد واصلوا نفس الحملة المقامة على الحقد والتعصب الديني والحرب المشهورة على كافة متبعي الديانات الأخرى, ولا سيما منهم النصارى, ومن أولئك المفسرين: أبو بكر بن العربي, وأبو السعود, وابن الفرس, والآلوسي, والسيوطي, والخازن, والخطيب الشربيني, وغيرهم"[٦٠].

فهذه أباطيل واتهامات واهية لا تستند لأيّ دليل, رجمَ بها المؤلفُ المفسرين والفقهاء لغاية في نفسه, سيكشف عنها عما قليل. وعلى الرغم من تهافت هذه الدعاوى, إلا أننا سنرد عليها لمقتضى الأمانة العلمية ودفعاً عن علماء الأمة. ويأتي ردها من وجهين:

أولاً: إنّ الأصل الذي يوجه أفكار وميول المسلمين وينظم علاقاتهم مع باقي البشر, أفراداً وشعوباً ودولاً, هو الوحي (الكتاب والسنة). وليس للبشر في هذا شأن إلا الفهم والتطبيق, وكذلك فإنّ الذي يوجه ميولهم (مشاعر الحب أو الكره) تجاه الآخر؛ هو الفكر المستمد من الوحي عن هذا الآخر, قال تعالى: **(لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ)**[المجادلة: ٢٢]. أمّا إذا حدثَ أن انحرف بعض المسلمين في نظرتهم للعلاقة مع الآخر, متأثرين بأفكارٍ منحرفة ومتعصبة, فلا يتحمل الإسلام وزر مثل هذا الانحطاط النسبي في الفكر والسلوك, ولا يُنسب إليه البتة, فالإسلام بريء من أي فهمٍ مغلوطٍ لنصوصه أو تطبيق مشوه لنظامه.

ودور المسلمين الأهم في الحياة؛ هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور بدعوتهم إلى هدي الإسلام, فقد بيّن القرآن الكريم حقيقة علاقة المسلمين مع الآخر؛ بأنّها مبنية ابتداءً على الإحسان وإرادة الخير والهدى لجميع الجنس البشري, **(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)**[آل عمران: ١١٠]. ويجب أن تتم هذه الدعوة بأساليب إنسانية راقيّة, **(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ**

أَحْسَنُ)[النحل: ١٢٥], ولا بدّ للداعية من الاستبصار والفهم العميق لما يدعو إليه مع الوضوح في الطرح, **(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)**[يوسف: ١٠٨].

والأمّة التي أناط الله بها هذا الدور الشريف؛ لا ينبغي لها الانقياد وراء مشاعر الحقد والتعصب تجاه الأمم؛ ولو فعلت ذلك لما استطاعت أن ترشد البشرية إلى الخير وتقودها إلى السلام. أمّا من يقف حائلاً أمام وصول هذا الخير إلى الناس ويجاهر بعداوته لمبدأ الإسلام؛ فللمسلمين أن يعادوه ويقاتلوه جهاداً في سبيل الله, **(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ)**[البقرة:١٩٣]. ومع كلّ هذا؛ لم يقل أحد ممّن يُعتدّ برأيه من علماء المسلمين؛ بإجبار أيّ إنسان على اعتناق العقيدة الإسلاميّة, وذلك لمقتضى قوله تعالى: **(لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)**[البقرة:٢٥٦]. فالعقيدة الإسلامية تُعرض ولا تُفرض.

ثانياً: لا يوجد في أقوال المفسرين الذين اتهمهم الثعالبي؛ ما يذكي الحقد والكراهية تجاه اليهود والنصارى, أو يشجع على شن الحروب ضدهم. فمجمل كلامهم بيانٌ لما ينبغي أن تكون عليه علاقة المسلمين مع أهل الكتاب؛ وفقاً للأحكام الشرعية المستنبطة من الآيات المتعلقة بذلك. وإليك الدليل من أقوالهم، فعند قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنّ الله لايهدى القوم الظالمين)**[المائدة: ٥١]. قال **أبو السعود:** "أي لا يتخذ أحدٌ منكم أحداً منهم ولياً, بمعنى لا تصافوهم ولا تعاشروهم مصافاة الأحباب ومعاشرتهم"(٦١). ويقول **الخازن** في تفسيرها: "نهى الله المؤمنين جميعاً أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصاراً وأعواناً على أهل الإيمان بالله ورسوله, وأخبر أنّه من اتخذهم أنصاراً وأعواناً وخلفاء من دون الله ورسوله والمؤمنين؛ فإنّه منهم وإنّ الله ورسوله والمؤمنين منه براء... لأنّه لا يتولى مولى إلا وهو راض به وبدينه, وإذا رضيه ورضى دينه صار منهم. وهذا تعليم من الله تعالى وتشديد عظيم في مجانبة اليهود والنصارى وكلّ من خالف دين الإسلام"(٦٢).

ويقول **الخطيب الشربيني** في قوله تعالى: "**(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء)** أي: توالونهم وتوادّونهم وتعاشرونهم معاشرة الأحباب. **(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ)** فيه إيماء إلى علة النهي أي: فإنّهم متفقون على خلافكم يوالي بعضهم بعضاً لاتحادهم في الدين وإجماعهم على مضارتكم. **(وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنْكُمْ)** أي: ومن والاهم منكم **(فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)** أي: من جملتهم, وهذا تشديد في وجوب مجانبتهم أو لأنّ الموالين كانوا منافقين"(٦٣).

وعند قوله تعالى: **(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواولتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ)**[المائدة: ٨٢]. نجد **الآلوسي** – على عكس اتهام الثعالبي – يثني على صالحي أهل الكتاب, ويظهر إيجابياتهم المذكورة في الآية, فيقول: "والتنكير في رهباناً لإفادة الكثرة, ولا بدّ من اعتبارها في القسيسين أيضاً, إذ هي التي تدلّ على مودة جنس النصارى للمؤمنين, فإنّ اتصاف أفراد كثيرة لجنس بخصلة؛ مظنة لاتصاف الجنس بها, وإلا فمن اليهود أيضاً قوم مهتدون, لكنهم لمّا لم يكونوا في الكثرة كالذين من النصارى؛ لم يتعدّ حكمهم إلى جنس اليهود. **(وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ)** عطف على (أنّ منهم) أي وبأنّهم لا يستكبرون عن اتباع الحقّ والانقياد له إذا فهموه, أو أنّهم يتواضعون ولا يتكبرون كاليهود"(٦٤).

وهكذا لم نجد في أقوال المفسرين ما ادَّعاه الثعالبي من الاستعداء والتهييج والتعصّب ضد أهل الكتاب؛ بل على العكس, **فالآلوسي** يجعل النهي عن موالاة أهل الكتاب تعليلاً للخوف على مصلحتهم, حيث يخشى أن تجرّ الموالاة التقاعس عن واجب هدايتهم للإيمان. فيذهب إلى أنّ قوله سبحانه: **(إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)**[المائدة: ٥١] "تعليل يتضمن عدم نفع موالاة الكفرة؛ بل ترتُّب الضرّ عليها, وقيل: هو تعليل لكون من يتولاهم منهم أي: لا يهديهم إلى الإيمان بل يخليهم وشأنهم فيقعون فى الكفر والضلالة"(٦٥).

ثمّ إنّ عموم الآيات الآمرة بقتال الكفار والمشركين مُخصَّصٌ بمن يقف حائلاً أمام مدّ الدعوة الإسلامية إلى الناس, وبمن يقاتلون المسلمين ويخرجونهم من ديارهم. أمّا المسالمون الذين لم يُظهروا العداء للمسلمين فلهم أحكام خاصّة تنظم علاقاتهم بالمسلمين على وجه يحفظ كرامتهم وإنسانيتهم وحقوقهم, سواء أكانوا أهل ذمّة أم مجاورين غير محاربين, قال تعالى: **﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾**[الممتحنة: ٨]. قال **القرطبي**: "هذه الآية رخصة من الله تعالى في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم"(٦٦).

ويتلخص هدف الثعالبي من وراء هذه الحملة الشعواء على المفسرين بـ: الثورة على الموروث, ونبذ جهود العلماء السابقين بالكليّة, يقول: "كم كان وما زال من الضروري أن يتسم به المسلم من جرأة وعزم وتفكير عميق...؛ ليثور على كلّ ما تعلمه من قبل, ويقاوم سلطة المفسرين الذين اشتهروا بدراساتهم الدقيقة وكتاباتهم العلمية"(٦٧). ولا بدّ من إقصاء هداية الوحي ودور ورثة الأنبياء عن مكان الصدارة في توجيه الأمّة وقيادتها الفكرية؛ ليتحقق للأمّة الالتحاق بركب الحضارة البشرية المعاصرة! فـ "المسلمون اليوم إذا ما أزالوا كلّ تلك الأفكار الخاطئة التي أملاها عليهم بعض المفسرين والعلماء والفقهاء؛... يستطيعون المساهمة في تقدم الحضارة البشرية"(٦٨).

وبهذا يتضح جلياً مغزى الثعالبي من حملته ضد علماء المسلمين, المتمثّل بإنهاء دورهم كقيادة فكرية للأمّة, وليتخذ الناسُ رؤساء جهالاً أو عملاءً فيضلونهم. والثعالبي يعلم جيداً دور العلماء في الأمّة, قال ﷺ: "إنّ العلماء ورثة الأنبياء, وإنّ الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً, ورثوا العلم, فمن أخذه أخذ بحظ وافر"(٦٩).

ولم يستطع الثعالبي إخفاء إعجابه بمناهج الثورة الفرنسيّة وأفكار دعاتها, وإبداء حماسه المفرط في تطبيق تعاليمها على المسلمين, فهي البديل الأمثل لنهضة العالم الإسلامي! يقول: "ولا يفوتنا أن نشير إلى أنّ ما تشهده مصر اليوم, يعود الفضل فيه إلى أفكار التحرر والرقي والحضارة, التي جاء بها إلى تلك الربوع؛ الرفقاء والمساعدون الخالدون لمحمد علي من الفرنسيين. وما الفرنسيون اليوم إلا أحفاد أولئك الذين أعلنوا عن مبادىء حقوق الإنسان والمواطن, وساعدوا (محمد علي) على القيام بتطوير المسلمين في الميدان الثقافي, ومد يد المساعدة إليهم للقيام بعمل مشترك في سبيل التقارب بين البشر"(٧٠).

بل يذهب إلى أبعد من ذلك, فيصرح بأنّ هؤلاء الفرنسيين يقع على عاتقهم واجب هداية المسلمين وتثقيفهم! "وإليهم – الفرنسيون– ترجع مهمة التوجه إلى المسلمين بهذا النداء: إننا أحفاد أولئك الذين أعلنوا عن حقوق الإنسان والمواطن, وبما أنّكم بشر مثلنا, فإنّكم متساوون معنا وإخوان لنا, فلنعمل معاً في سبيل تقدم وطننا المشترك, والسمو به إلى أعلى مراتب المجد والسؤدد"(٧١).

فهذه صرخة علنية من المؤلف يدعو بها إلى إقصاء مباديء الإسلام, التي قامت عليها نهضة المسلمين منذ أربعة عشر قرناً, واستبدالها بمناهج الثورة الفرنسية العلمانية. وأنّ واجب إخراج الناس من الظلمات إلى النور؛ انتقل من المسلمين إلى الفرنسيين!! أين هذا الاستخذاء الذي ينادي به الثعالبي من العزة التي أجاب بها ربعي بن عامر رستم الفُرس بقوله: "الله ابتعثنا وجاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى, ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة, ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام, فأرسَلَنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه"(٧٢).

المسألة الثالثة: وحدة أتباع الأديان السماوية:

دعا الثعالبي بشدّة إلى وحدة أتباع الديانات السماوية الثلاث, بحجّة وجود قاسم مشترك بين هذه الديانات يفضي بالضرورة إلى اتحاد أتباعها؛ ألا وهو الأخلاق. فبدأ حديثه عن هذه المسألة بإنحاء اللائمة على المفسرين؛ فبتأويلاتهم لآيات القرآن الكريم؛ جعلوا الإسلام ديناً قومياً خاصاً بالعرب وحدهم, وحجتهم أنّ إعجاز القرآن البلاغي لا يستطيع إدراكه غير العرب, فـ "جميع المفسرين لم يدركوا كما ينبغي قول الرسول ﷺ: (لقد بُعثت إلى الناس كافّة[٧٣]) وقد أخطأوا خطأً فادحاً, عندما جعلوا الدين الإسلامي مقصوراً على الجنس العربي دون غيره من مجموع سكان العالم... فالنتيجة التي أفضى إليها المفسرون: أنّ العرب هم وحدهم القادرون على إدراك تلك البلاغة الصعبة المنال, وبذلك يتضح في نظرهم أنّ القرآن لم يُجعل إلا للعرب دون سواهم... وهكذا فقد أوصد المفسرون باب الإسلام في وجه الأجناس الأخرى"[٧٤].

في الحقيقة هذا كلام متهافت يحمل ردّه في ثناياه, لا يقوله من كان له أدنى اطلاع على أقوال المفسرين بشأن عالمية رسالة الإسلام, فلم يَقصُر أحدٌ من المفسرين رسالة الإسلام على العرب وحدهم, والأدلّة على ذلك كثيرة؛ فمثلاً عند قوله تعالى: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراًولكَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)**[سبأ: ٢٨]. قال شيخ المفسرين **الطبري:** "وما أرسلناك يا محمد إلى هؤلاء المشركين بالله من قومك خاصة, ولكنّا أرسلناك كافة للناس أجمعين, العرب منهم والعجم, والأحمر والأسود"[٧٥]. ويقول **الثعالبي** المفسِّر: "الآية إعلام من الله تعالى بأنّه بعث محمداً ﷺ إلى جميع العالم, وهى إحدى خصائصه التي خُصّ بها من بين سائر الأنبياء"[٧٦]. هذه هي حقيقة أقوال المفسرين, وليس كما يدعي الثعالبي. وأين المفسّر الذي يغفل عن قوله ﷺ: "... وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة"[٧٧].

وكذلك فإنّ واقع انتشار الإسلام بين شعوب الأرض؛ يردُّ بقوة مقولة الثعالبي بأنّ المفسرين أوصدوا باب الإسلام في وجه الأجناس الأخرى, فعدد المسلمين اليوم يزيد عن مليار ومئتي مليون من سكان العالم, نسبة العرب منهم (٢٥%) فقط. و(٧٥%) من مسلمي العالم غير عرب.

أمّا ما ذكره بأنّ المفسرين جعلوا إدراك إعجاز بلاغة القرآن شرطاً لدخول الناس في الإسلام؛ فغير صحيح ألبتة. ذلك أنّ العرب بعد القرن الثاني للهجرة وبسبب اختلاطهم بالأمم الأخرى؛ بدأ يظهر عند عامتهم ضعف اللسان العربي الفصيح, وبقي الضعف مستمراً إلى يومنا هذا, فأصبح معظم العرب الأقحاح لا يدركون أسرار الإعجاز البياني بالفطرة دون الفكرة. فكيف بغير العرب؟!

وإذا كانت مسألة إدراك إعجاز القرآن البياني من لوازم إقناع العرب الخُلص في عصر النبوة بصدق النبي ﷺ وحقيّة رسالته؛ فهي غير لازمة لمن بعدهم ممن ضعفت لديهم ملكة اللسان العربي, ومن باب أولى عدم لزومها لغير العرب. فعجزُ عرب عصر النبوة عن الإتيان بمثل القرآن؛ هو عجز لمن بعدهم من عرب وغيرهم إلى أن تقوم الساعة. وواقع الحال يثبت بأنّ دخول غير العرب في الإسلام لم يتم- غالباً- عن طريق إدراكهم لإعجاز القرآن البياني, ولو كُلّفوا بذلك لكان تكليفاً بما لا طاقة لهم به, ومنهج الدعوة الإسلامية يتنزه عن ذلك, فأكثرهم دخل الإسلام عندما فهم صفاء عقيدته, ورأى تطبيق أحكامه على أرض الواقع.

وممّا تجدر الإشارة إليه؛ أنّ دعوة المؤلف لاتحاد الشعوب الإسلامية والمسيحية واليهودية, والقضاء على الاختلاف بين الأجناس والطوائف؛ دعوة لا وجود لها إلاّ في عالم الخيال, ذلك أنّها مخالفة لما أقرّه الله ﷻ من سُنة الاختلاف والتدافع بين الأمم, وتهدف إلى القضاء على مبدأ الولاء والبراء عند المسلمين, وتصادم حقيقة هيمنة القرآن الكريم على الكتب السابقة ونسخه لشرائعها. قال تعالى: **(وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ)**[البقرة: ١٢٠]. وفي

تفسير قوله تعالى **(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)**[هود: ١١٨]. يقول **أبو السعود:** "ولو شاء ربك لجعل الناس أمّة واحدة مجتمعة على الحقّ ودين الإسلام, بحيث لا يكاد يختلف فيه أحد, ولكن لم يشأ ذلك فلم يكونوا متفقين على الحقّ ولا يزالون مختلفين في الحقّ, أي مخالفين له"[٧٨]. وقال **ابن كثير:** "**(وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ)**[هود: ١١٨+ ١١٩], أي ولا يزال الخُلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم"[٧٩].

علماً بأنّ المنصفين من النصارى أنفسهم؛ يصرحون بأنّ الدعوة لتوحيد الأديان يستحيل تطبيقها على أرض الواقع, يقول النصراني **(إبراهيم لوقا):** "لا سبيل إلى الوحدة الكاملة إلا بأن تعتنق إحداهما مبادئ الأخرى، فإمّا إيمان بلاهوت المسيح وتجسده وموته وقيامه، فيكون الجميع مسيحيين، وإمّا إيمان بالمسيح كواحد من الرسل النبيين، فيصبح به الجميع مسلمين)"[٨٠].

أمّا قول الثعالبي بأنّ القرآن الكريم أقام علاقة تحالف بين اليهودية والنصرانية من جهة والدين الإسلامي الجديد من جهة أخرى, بناء على قوله تعالى: **(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)**[آل عمران: ٦٤]"[٨١].

فالقرآن الكريم لم يُقم علاقة تحالف بين المسلمين وأهل الكتاب, وكذلك لم يأمر المسلمين بعدائهم, ولكنّه أمر المسلمين بالتوجه إلى أهل الكتاب– كغيرهم من البشر– بالهداية والإرشاد إلى الحقّ المبين المتمثل بالإسلام. وتصحيح انحرافاتهم العقدية المؤدية إلى الشرك والكفر. وذلك عن طريق الدعوة والحوار بالتي هي أحسن, قال تعالى: **(وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ)**[العنكبوت: ٤٦]. هذا ما دعا إليه القرآن الكريم, ولم يدعُ إلى إقامة أي تحالف مع غير المسلمين ألبتة, فالتحالف فيه نوع من الولاء, وقد نهى الله المسلمين عن موالاة الكافرين والمشركين, قال تعالى: **(لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)**[آل عمران: ٢٨].

فالذي دعا إليه القرآن الكريم بهذا الخصوص؛ هو بيان ما ينبغي أن تكون عليه علاقة المسلمين بالآخر على وجه العموم, ومنهم اليهود والنصارى. وآية آل عمران التي استشهد بها الثعالبي هي من هذا القبيل, فتتضمن دعوة أهل الكتاب لتصحيح عقائدهم الشركيّة وعبادة الله وحده, فإن أبوا فهم وشأنهم, ونشهد عليهم بذلك ونشهد لأنفسنا بالإسلام. يقول **أبو السعود** في تفسير هذه الآية: "فإن تولوا عما دعوتموهم إليه من التوحيد وترك الإشراك فقولوا, أي قل لهم أنت والمؤمنون: إشهدوا بأنّا مسلمون, أي لزمتكم الحجة فاعترفوا بأنّا مسلمون دونكم, أو اعترفوا بأنكم كافرون بما نطقت به الكتب وتطابقت عليه الرسل– عليهم السلام– "[٨٢].

ويظهر رأي الثعالبي بوضوح في مسألة وحدة الأديان؛ عند حديثه على قوله تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)**[البقرة: ٦٢]. يقول: "وهذا شرح المفسرين لتلك الآية: إنّ الذين آمنوا هم الذين يقولون آمنّا وما هم بمؤمنين. والذين هادوا هم اليهود الذين لا يتبعون تعاليم التوراة. والنصارى هم الطالحون من النصارى. والصابئون هم الطالحون من الصابئين. وكلّ هؤلاء ينالون أجرهم عند ربهم إذا صدّقوا برسالة محمد ﷺ. وهكذا فقد أُرهِق معنى الآية بما لا يطيقه, والحال أنّه على غاية من الوضوح والدقة. ولم يعط هذا الشرح مفسرٌ واحد من المفسرين, ونخص بالذكر منهم: البيضاوي, والرازي, وآخرين... وأنّ ما ذهب إليه جميع العلماء المسلمين, هو أنّ تلك الآية قد نسختها الآية التالية: **(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)**[آل عمران: ٨٥]"[٨٣].

كلام الثعالبي هذا ينطوي على أمور خطيرة لا بد من التوقف عندها. فلم ينقل لنا قولاً واحدً من أقوال المفسرين ليستشهد به على ما ذهب إليه, وهذا يكفي- من الناحية العلمية- لردّ قوله. أمّا تفسير الآية الذي نسبه إلى المفسرين فليس كما قال, فللمفسرين أكثر من قول في المقصود بهؤلاء الأصناف المذكورين في هذه الآية. وأرجح الأقوال على أنّ المقصود بذلك: إمّا من كان من هؤلاء المذكورين قبل مجيء الإسلام متمسكاً بأصول دينه الذي يتبعه دون تحريف أو تبديل. وإمّا من آمن منهم بالإسلام بعد نزول القرآن. وتالياً أقوال المفسرين في هذه الآية ممن خصهم الثعالبي بالذكر ليتبين تهافت دعواه:

يقول **البيضاوي**: "من كان منهم في دينه قبل أن يُنسخ مصدقاً بقلبه بالمبدأ والمعاد، عاملاً بمقتضى شرعه. وقيل من آمن من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً، ودخل في الإسلام دخولاً صادقاً **(فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ)**"(٨٤). وقال **الرازي**: "ثم إنّه سبحانه بيّن في هذه الفرق الأربعة؛ أنّهم إذا آمنوا بالله فلهم الثواب في الآخرة؛ ليُعرَف أنّ جميع أرباب الضلال إذا رجعوا عن ضلالهم وآمنوا بالدين الحقّ؛ فإنّ الله سبحانه وتعالى يقبل إيمانهم وطاعتهم ولا يردهم عن حضرته ألبتة، واعلم أنّه قد دخل في الإيمان بالله الإيمان بما أوجبه، أعني الإيمان برسله ودخل في الإيمان باليوم الآخر جميع أحكام الآخرة، فهذان القولان قد جمعا كل ما يتصل بالأديان في حال التكليف وفي حال الآخرة من ثواب وعقاب"(٨٥).

أمّا قوله باتفاق جميع العلماء على نسخ الآية, فلا يُسلّم له به, ففي المسألة أكثر من رأي, والراجح عدم النسخ, يقول **ابن عاشور**: "لا وجه لدعوى كون هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: **(ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه)** إذ لا استقامة في دعوى نسخ الخبر"(٨٦).

واندفاع الثعالبي لفكرة وحدة أتباع الديانات السماوية؛ كاد أن يوصله إلى التصريح بأنّ اليهود والنصارى داخلون في عداد المسلمين, سواء من كانوا قبل الإسلام أو بعده إلى يومنا هذا! لذا؛ فهو يُقرّر بأنّ "المسلم هو من آمن بالشريعة الإلهية, فحسب المفهوم القرآني يُعتبر إبراهيم وإسحاق وموسى وداود وعيسى- عليهم السلام- من المسلمين, والحال أنهم كانوا يهوداً. فهل يصح القول بأنّهم في الآخرة من الخاسرين؟ فلماذا حينئذ الاقتداء بأولئك المفسرين وحصر المغزى الرائع لتلك الآية في حدود ضيقة, ولماذا السير في الاتجاه المعاكس للدين الإسلامي, الذي يقرّ بتعايش الأديان الأخرى؟"(٨٧).

لا بدّ من التنبيه أولاً على المغالطة التي وقع بها الثعالبي, وهي اعتباره إبراهيم وإسحاق- عليهما السلام- يهوداً, فاليهود هم أتباع موسى عليه السلام من بني إسرائيل, وموسى عليه السلام؛ يُعد من ذرية إبراهيم عليه السلام وجاء متأخراً عنه بزمن بعيد. وكذلك فإن القرآن الكريم يردّ هذه الدعوى, قال تعالى: **(مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)**[آل عمران: ٦٧]. فهذا ادعاء يهودي قديم حديث, وراءه ما وراءه، فلا يليق بمسلم مخلص, تبني مثل هذه الأفكار. فالقرآن الكريم لم يعترف بغير الإسلام ديناً قيماً, قال تعالى: **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ)**[آل عمران: ١٩]. وهذا الإسلام هو دين التوحيد الذي بعث الله تعالى به جميع الأنبياء والرسل. ففي تفسير قوله تعالى: **(قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)**[آل عمران: ٥٢], قال **الرازي**: "ذلك إقرارٌ منهم بأنّ دينهم الإسلام, وأنّه دين كلّ الأنبياء صلوات الله عليهم"(٨٨).

أمّا قوله (المسلم هو من آمن بالشريعة الإلهية) فهذا استدلال في غير محله, وليٌّ لأعناق النصوص لاستنطاقها بغير المقصود. فالآية الكريمة لم تأت في سياق الحديث عن الإسلام ولم تذكر لفظة الإسلام؛ وإنّما جاءت في سياق الحديث عن اليهود وأفعالهم. فالكاتب اقتطع الآية من سياقها وفصَلها عن سباقها ولحاقها, ليخلخل مفهوم الإيمان والإسلام, وليصبغ بصبغة الإسلام؛ جميع المغضوب عليهم والضالين من أفاعي الأرض وشذاذ الآفاق. فالمسلم بحسب

التعريف الشرعي؛ له وصفٌ منضبط, فهو من آمن بأركان الإسلام التي أفصح عنها قوله ﷺ: "الإسلام أن تشهد أنّ لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله, وتقيم الصلاة, وتؤتي الزكاة, وتصوم رمضان, وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا"(٨٩). وإذا ما آمن أحدٌ من أهل الكتاب بهذه الأركان وصدّق برسالة محمد ﷺ, وبجميع ما ورد في القرآن الكريم؛ فهو والمسلمون سواء, وبهذا نطق القرآن الكريم: **(إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ)**[آل عمران: ١٩٩]. أمّا من كذّب بذلك؛ فهو كافرٌ قطعاً, ثبت عن النبي ﷺ أنَّه قال: "والذي نفسي بيده لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني, ثم يموت ولَم يُؤمن بالذي أُرسلتُ به إلاَّ كان من أهل النار"(٩٠).

والجدير بالذكر؛ أنّ الدعوة لوحدة (أتباع الديانات الإبراهيمية(٩١)) بدأت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر؛ بإيعاز من بعض القُسُس، فهي ثمرة من ثمار الغزو الفكري والاستعمار الأوربي, ثم توالت الصيحات فيما بعد. يقول الشيخ محمد محمد حسين– رحمه الله– : "أمّا التوفيق بين الأديان– بين المسيحية والإسلام على وجه الخصوص– فقد بدأ في العصر الحديث باتفاق قسيس إنجليزي اسمه (إسحاق تيلور) مع الشيخ محمد عبده وبعض صحبه, في أثناء نفيه بدمشق عام ١٨٨٣م على التوحيد بين الدِّينيْن"(٩٢). وهكذا يظهر تأثُر الثعالبي في حديثه عن التعايش الديني؛ أو الدعوة لوحدة أتباع الديانات الإبراهيمية؛ بأفكار بعض مؤسسي مدرسة المنار في هذا الجانب(٩٣).

المسألة الرابعة: الجهاد في الإسلام:

خصص الثعالبي الفصل الحادي عشر من كتابه للحديث عن (الجهاد في الإسلام). بدأه باتهام المفسرين بتأويل قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)** [التوبة: ١٢٣] تأويلاً بخلاف المراد, وهو الآتي: "يجب على المسلمين أن يقاتلوا غير المسلمين حيثما وجدوهم... وبحسب التأويل المذكور؛ فإنّه لا سبيل لإقامة علاقات بين المسلمين والمحتلين المسيحيين, غير علاقات الخوف, ولا يمكن أبداً أن يرتبطوا في ما بينهم بعلاقات الود والامتنان والثقة"(٩٤).

هذا تجن من الثعالبي على المفسرين, وليٌّ لأعناق النصوص, فوجوب قتال المحاربين من الكفار والغلظة في معاملتهم؛ أحكام شرعية مستمدة من نصّ الآية مباشرة, بطريق أفعال الأمر الدالة على الوجوب كما هو مقررٌ في أصول الفقه.

وبرأي الثعالبي؛ فإنّ المسلمين لن يتمكنوا من تصحيح أفكارهم وتغيير سلوكهم ليصبح مرضياً لدى المستعمرين؛ إلا إذا "أولوا تعلمهم بالمدارس الأوروبية, وقد تلقوا بموجب تلك التربية المتحررة أفكاراً تصحيحية غيّرت تلك العقلية"(٩٥). هذا الاستغراب الثقافي الذي يبشر به الثعالبي؛ هو البديل عن الثقافة المستمدّة من التراث الإسلامي الأصيل! وهو الطريق الأمثل –بحسب رأيه– لتحسين صورة الإسلام لدى الغرب, ولضمان تعاون المسلمين بإخلاصٍ مطلقٍ مع المحتلين المستعمرين! والثعالبي يتعهدُ بأن يوفر للمسلمين "الوسائل الكفيلة بالإعراض عنه –أي تراث المفسرين– "(٩٦).

ويرى أنّ الآية السابقة "نزلت في وقت كان فيه المسلمون في حرب مع جميع أجوارهم, وسورة التوبة تمثل تنظيماً لحالة الحصار التي من المفروض أن تزول بعد انتهاء الحرب التي أشهرها المسلمون على أجوارهم, وهذا هو معنى **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ)**[التوبة: ١٢٣]. ولكن بعد أن تضع الحرب أوزارها ويستتب السلم؛ يجب أن يكون موقفهم مطابقاً لما جاءت به السور المنزلة بمكة خلال فترة السلم والوفاق مع جميع البشر"(٩٧).

هنا أقحم الثعالبي نفسه في مجال لم يكن متضلعاً فيه, فقرر أموراً لا تستند لأيّ حجة, وتنبىء عن عدم إلمامه بتاريخ السيرة النبوية وأحداثها. فسورة التوبة المتضمنة للآية المذكورة من أواخر ما نزل من القرآن الكريم, ورد في صحيح البخاري أنّ: (آخر سورة نزلت براءةٌ)(٩٨). وذلك في السنة التاسعة للهجرة, عند عودة النبي ﷺ من غزوة تبوك, وفي هذا

الوقت لم يكن المسلمون في حالة حرب أو حصار مع جميع جيرانهم كما يدّعي الثعالبي, بل على العكس فقد استتب أمر المسلمين وقامت دولتهم وقويت شوكتهم, ودانت معظم قبائل جزيرة العرب بالإسلام, ودخل الناس في دين الله أفواجاً, حتى سمّي ذلك العام بعام الوفود.

أمّا فساد تأويله للآية فواضح, فالآية الكريمة جاءت لتأكيد وجوب حمل الدعوة الإسلامية عن طريق الجهاد وبيان كيفية ذلك, ونزلت قبلها آيات كثيرة بهذا الخصوص. فـ "الآية مبينة صورة القتال كافة, وهي مترتبة مع الأمر بقتال الكفار كافة، ومعناها أنّ الله تبارك وتعالى أمر فيها المؤمنين أن يقاتل كلُّ فريقٍ منهم الجنسَ الذي يصاقبه[٩٩]من الكفرة، وهذا هو القتال لكلمة الله وردِّ الناس إلى الإسلام"[١٠٠]. ثمّ إنّ الثعالبي حاول تضييق مجال الجهاد في الإسلام غايةً وتعلّقاً.

فمن حيث الغاية؛ قَصَره على غرض الدفاع فقط, "فلم يخض الرسول ﷺ غمار جميع الحروب إلا لسبب واحد وهو الدفاع عن النفس"[١٠١]. هذه مقوله انهزاميّة لا أصل لها, هدفها إخراج فريضة الجهاد عن مقصودها الأسمى, ألا وهو إيصال دعوة الإسلام إلى الناس كافة. فلولا الجهاد لم ينعم بهدي الإسلام من دخل فيه من أمم الأرض. وهو لازمٌ لإقامة حكم الله في الأرض, قال تعالى: **(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)**[الصف: ٩]. يقول **القرطبي** في تفسير هذه الآية: "وليس المراد بالظهور ألا يبقى دينٌ آخر من الأديان؛ بل المراد أن يكون أهل الإسلام عالين غالبين"[١٠٢]. وهل يكون غَلَبٌ بدون جهاد؟ قال النبي ﷺ "لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحقّ, ظاهرين على من ناوأهم؛ حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال"[١٠٣].

وحكم الجهاد في سبيل الله: "فرضٌ على الكفاية إذا قام به قوم سقط عن الباقين"[١٠٤]. ويصبح فرض عين في حالات ثلاث: "أحدها: إذا التقى الزحفان وتقابل الصفّان حَرُم على من حضر الانصراف وتعيّن عليه المقام. لقول الله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا)**[الأنفال: ٤٥]. الثانية: إذا نزل الكفّار ببلد تعين على أهله قتالهم ودفعهم. الثالثة: إذا استنفر الأمام قوماً لزمهم النفير معه"[١٠٥].

أمّا من حيث التعلّق؛ فقد ربط الثعالبي أحكام الجهاد بأسباب نزول الآيات الدّالة عليه؛ يقول: "من الحقائق التي لا نزاع فيها بالنسبة لكافة المسلمين؛ أنّ لكلّ آية سبباً معيناً واضحاً لا يمكن أن يتطرق إليه أيُّ شك, وبناء على ذلك؛ فإنّ كلّ آية من تلك الآيات تتعلق بحالة بعينها"[١٠٦].

هذا كلام فيه نظر؛ يؤسس فيه الثعالبي لتاريخية القرآن التي ينادي بها– هذه الأيام بعض الحداثيين أمثال محمد أركون– , ويخالف ترجيح الأصوليين في أنّ "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"[١٠٧]. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى؛ فليس جميع آيات القرآن الكريم نزلت عقب أسباب, والذي نزل منه على سبب معين أقلّه, وأغلب آياته وسوره نزلت ابتداءً لمقصود هداية البشر دون تعلّق بأيّ سبب خاص.

المسألة الخامسة: التأويل المنشود للقرآن الكريم كما يراه الثعالبي:

وفي القسم الأخير من كتاب (روح التحرّر في القرآن) أفصَح الثعالبي عن أمرٍ خطير؛ جعله بمثابة الخاتمة التي توصّل إليها من دراسته, فاشتطّ وغالى عندما ذهب إلى أنّ الثورة الفرنسيَّة تستند في مبادئها إلى القرآن الكريم, بل يجب إعادة فهم القرآن الكريم بحسب مبادئها, فالطريقة الأمثل والأنجع– في نظره – لنقل المسلمين من التخلف إلى الرقي والتحضر "لا تتمّ إلا بتأويل القرآن تأويلاً صحيحاً وحقيقياً وإنسانياً واجتماعياً, أي باختصار: تأويلاً مطابقاً لمبادىء الثورة

الفرنسية, التي هي نفس المبادىء التي جاء بها القرآن, فبفضل ذلك يتسنى للمسلم أن يستمدّ العناصر القادرة على تغيير عقليته, وتحويله إلى إنسان حرّ ومتعلم ومتأثر بكلّ ما له علاقة بالإنسانية والرقي والحضارة"[١٠٨].

هذا كلامٌ فيه تجن واشتطاط, ويحمل دعوة مبطنة إلى الإعراض عن تفاسير السلف الصالح للقرآن الكريم؛ لأنّها ليست على هدي مبادىء الثورة الفرنسية!! وإنّما كانت بواسطة تلك "العقليّة التي أنشأها أولئك العلماء والفقهاء والمفسرون الذين كانوا مصيبة على الإسلام"[١٠٩].

ألهذه الدرجة الاستخذاء واللهث وراء ما عند الغرب من أفكار! ولكن صدق رسول الله ﷺ حين قال: (لتتبعُن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه) قلنا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: (فمن)[١١٠].

ومقابل هذا النكير الذي يصبّه المؤلف على علماء الإسلام؛ نجده يكيل المدح والتبجيل لفرنسا, كونها صاحبة الفضل في نهضة مصر الحديثة,ولا أحد يستطيع أن يعيد للمسلمين كرامتهم غيرها. فيرى أنّ "فرنسا يرجع إليها أول سبب من أسباب ما تشهده اليوم مصر من نهضة ورقي وتقدم حضاري باهر, ألا تستطيع المبادرة ببعث تلك الحركة السخية, ومنح المسلمين ما يستحقونه من كرامة بوصفهم من بني الإنسان, وباعتبارهم أناساً متحضرين"؟![١١١].

هذا كلامٌ مردود جملةً وتفصيلاً, فالسبب الأول في نهضة الأمّة الإسلاميّة –ومنها مصر– ورقيّها على المستوى الحضاري والمدني؛ هي مبادئ الإسلام وأنظمته التي تعالج كافة شؤون الحياة. فالقرآن الكريم؛ هو مفجّر الثورة العلميّة عند العرب والمسلمين, وهو فاتق إبداعاتهم في كلّ مجال. فالمسلمون لا الفرنسيون أو غيرهم؛ هم من قال الله فيهم **(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)**[آل عمران: ١١٠].فأيُّ كرامة وأيّ خير قدّمته الثورة الفرنسيّة للمسلمين؟ لقد غزت فرنسا بلاد المسلمين, لا لمنحهم الكرامة وإنّما لسلبها منهم وإذلالهم, عن طريق السيطرة العسكرية والاقتصادية والثقافية. وجعلهم تابعين لها في قرارهم السياسي, والحؤول بينهم وبين إقامة كيان سياسي يوحدهم تحت راية واحدة, ويُجري عليهم أحكام الكتاب والسنة. قال تعالى: **(وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا)**[البقرة: ٢١٧].

وتجدر الإشارة إلى أنّ الثعالبي؛ عزا – في بداية الكتاب– نشأة التأويل المتحرر للقرآن إلى عهد كبار الصحابة ﷺ, "فمنذ انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وفي عهد الخلفاء الراشدين وخلال القرون الإسلامية الأولى؛ تم تأويل القرآن تأويلاً متحرراً إلى أبعد حدّ"[١١٢].

هذا كلامٌ متهافت, فلا ندري ما الذي يقصده الثعالبي بالتأويل المتحرر للقرآن زمن الصحابة ﷺ؟ أهو متحرر من التقيد بالحديث الصحيح, أم من موافقة ظاهر اللغة, أم من اعتبار السياق, أم من الاجتهاد العقلي المنضبط بشروطه؟! فكلّ من له أدنى اطلاع على وضع التفسير زمن الصحابةﷺ يدرك جيداً عدم حقيّة ما ذهب إليه الثعالبي. فقد كان كثير منهم ﷺ إذا سئلوا عن شيء من القرآن لم يجيبوا تورعاً, ومن تصدى منهم لتفسير القرآن الكريم؛ كان يلتزم أحسن طرق التفسير, فكانوا يبحثون عن التفسير أولاً في القرآن نفسه؛ فإن لم يوجد بحثوا في حديث الرسول ﷺ, فإن لم يوجد اجتهدوا في ما يحتمله اللفظ من لغة العرب وفي نطاق السياق, مع سلامتهم ﷺ من الميل مع الهوى.فأيُّ تأويلٍ متحررٍ هذا الذي يدعيه الثعالبي! ولماذا لم يأت بمثال واحد للدلالة على ما ذهب إليه؟ فأغلب الظنّ أنّه أتى بهذا الكلام تمهيداً لما ذكره في الكتاب من آراءٍ متفلتة من كلّ ضوابط التفسير؛ ليوهم القارئ أنّ آراءه هذه؛ لا تخرج عن إطار منهج وطريقة السلف الصالح في التفسير.

وخلاصة هذه المسألة: أنّ الثعالبي يدعو في مجمل أفكاره التي بثها في كتابه هذا عامّةً, وفي هذا الفصل خاصّة؛ إلى إعادة النظر في محتوى القرآن الكريم, وتأويله –حسب رأيه – تأويلاً متحرراً متسامحاً[١١٣]. وفق منهجية قوامها أمران:

الأول: تفسير القرآن الكريم بعيداً عن الضوابط المستمدّة من موروث علماء المسلمين. **الثاني:** تفسيره من خلال الدراسات والنظريات والمناهج الغربية المعاصرة.

وما أشبه اليوم بالبارحة, فما دعا إليه الثعالبي قبل قرن من الزمان, يدعو إليه هذه الأيام جماعة ممن يُسمّون بالحداثيين, حيث ينادون بالسير في تفسير القرآن الكريم وفق مناهج الغرب القائمة على نظريات العلوم الإنسانية, كعلم النفس والاجتماع والهيرمينوطيقا وغيرها, وقطع هذا الفهم عن الجذور والأصول المتمثلة بكل ما ورثناه عن النبي ﷺوصحابته الكرام ﷺ فيما يخص فهم القرآن وتطبيق الإسلام, وكل ما قرره السلف الصالح من العلماء المجتهدين من ضوابط الفهم المرعية في علوم القرآن وعلم أصول الفقه وعلوم اللغة.

لذا؛ تُعدّ أفكار الثعالبي في هذا الكتاب؛ من أصول الفكر الحداثي المعاصر, الذي يظهر جلياً عند محمد أركون في ما يسمى "بمنهج التريخانية القائم على تطبيق علم الإنسان والمجتمع على دراسة الإسلام"(١١٤).

ومما يلفت انتباه القارئ في كتاب (روح التحرّر)؛ بروز ظاهرة عقدة العداء لعلماء المسلمين عند الثعالبي؛ خاصة المفسرين منهم, فالمفسرون – في رأيه– جعلوا الإسلام ديناً قومياً, لذا؛ فهم أعداء التسامح وأعداء الأمم من غير المسلمين! "فما كان يرمي إليه المفسرون هو شن الحرب وتقوية الغريزة العدوانية, وتغذية روح القوميّة الضيقة, لا سيما أنّ الحروب التي يدعون إليها كانت دائماً مكلّلة بالنصر ومتبوعة بأعمال النهب وجمع الغنائم, وقد استعملت هكذا لتنمية الغرائز الدموية لدى العساكر والعوام"(١١٥). والذي يظهر أنّ الجانب النفسي عند الثعالبي في هذه المسألة طغى على الجانب الفكري, وأظنّ أنّ إطلاقه لهذه الأحكام الجائرة بحقّ العلماء والمفسرين؛ كان بسبب سجنه جراء القضية التي أثارها ضده علماء جامع الزيتونة.(١١٦).

وفي هذا الخصوص يقول محمود عزب: "إنّ الثعالبي في هذا العمل, يعلن ثورة عارمة بل ثورة شعواء, على كلّ ما حوله وكل من حوله, وهو يهاجم بعنف قدماء المفسرين وأهل الطرق الصوفية, ويرفض ما يسميه (استبداد المفسرين) ويضعهم جميعاً على مستوى واحد"(١١٧).

الخاتمة:

وفي نهاية هذه الدراسة؛ يسجّل الباحث أهم النتائج التي توصّل إليها:

١. أظهرت الدراسة أنّ الثعالبي يدعو في مجمل أفكاره في الكتاب؛ إلى إعادة النظر في فهم القرآن الكريم بعيداً عن طرق التفسير ومناهج المفسرين المسلمين, واستبدالها بمناهج الدراسات الإنسانية الغربية وأفكار الثورة الفرنسية, وهو ما يسميه بـ (التأويل المتحرر والمتسامح للقرآن). لذا؛ تُعد أفكاره في هذا الجانب؛ من الأصول المبكّرة للفكر الحداثي المنحرف.
٢. من أبرز ما يدعو إليه المؤلف في الكتاب: الدعوة إلى وحدة أتباع الديانات السماوية الثلاث. والدعوة إلى نزع حجاب المرأة وتشجيعها على الاختلاط.
٣. تُعدّ أفكار الثعالبي في هذا الكتاب؛ انسلاخاً من الذات لحساب الفكر الغربي العلماني. بدليل دعوته إلى الاعتماد على مبادئ الثورة الفرنسية لإصلاح المجتمع المسلم.
٤. بينت الدراسة أنّ كتاب (روح التحرّر) يحتوي جملة من الأفكار المنسوبة إلى القرآن والمفسرين على اعتبار أنّها أفكار إسلامية, وهي في الحقيقة لا تمت إلى الفكر الإسلامي بصلة.
٥. كشفت الدراسة أنّ أفكار الثعالبي؛ تُعدّ امتداداً لأفكار بعض مؤسسي مدرسة المنار, كالأفغاني, ومحمد عبده.

٦ يبدو أنّ أزمة الثعالبي مع علماء تونس– التي سُجِن على إثرها– جعلته يُكنّ حقداً وعداءً على باقي علماء المسلمين الذين سبقوه زماناً, خاصةً المفسرين, ممّا ولّد أزمة ثقة بينه وبين الموروث العلمي لهؤلاء العلماء.

٧ الكتاب غير منهجي, فالمؤلف لم يتبع فيه منهجية واضحة وثابتة, خاصة في ما يخص عزو النقول وتوثيقها, فمعظم طعوناته واتهاماته لعلماء المسلمين؛ غير موثقة, ويغلب عليها طابع التعميم والإبهام ومعظم الأحاديث التي استدل بها ضعيفة.

٨ أظهرت الدراسة أنّ ثقافة الثعالبي العامة في مجال العلوم الشرعية؛ لم تكن بالقدر الذي يسمح له ببسط القول وتحرير المسائل التي يطرحها.

هذا ما وفقني الله إليه, فإن أصبت فلله الحمد والمنة, وإن أخطأت في بعض الأمور فذلك ديدن البشر ولكلّ مجتهد نصيب. ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا, وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

(١) ينظر: أنور الجندي, **عبدالعزيز الثعالبي رائد الحرية والنهضة الإسلامية**, دار الغرب الإسلامي, بيروت, ط١, ١٩٨٤م, ص١٠–١١. ومسعودة بوالخضرة, **الشيخ عبد العزيز الثعالبي ودوره في الإصلاح الإسلامي**, المكتبة العصرية, بيروت, ط١, ١٩٩٥م. ص٣٣.

(٢) وهي الشهادة المتوِّجَة للدراسة بجامع الزيتونة المعمور. قبل إحداث شهادة التحصيل سنة ١٩٣٣م.

(٣) هذا بحسب رؤية الثعالبي.

(٤) لا نوافق الكاتبة على هذه التسمية الكنسية الكهنوتية, فلا يوجود رجال دين في الإسلام؛ وإنّما علماء.

(٥) مسعودة بوالخضرة, **الشيخ عبد العزيز الثعالبي ودوره في الإصلاح الإسلامي**, ص٣٣–٣٤, بتصرف قليل.

(٦) **المصدر نفسه**, ص٣٧–٣٨.

(٧) محمد الفاضل بن عاشور, **الحركة الأدبية والفكرية في تونس**, الدار التونسية, تونس, ١٩٧٢م, ص٧٣.

(٨) ينظر: مسعودة بوالخضرة, **الشيخ عبد العزيز الثعالبي ودوره في الإصلاح الإسلامي**, ص٥٠ ٥٣. وأنور الجندي, **عبدالعزيز الثعالبي رائد الحرية والنهضة الإسلامية**, ص١٠ وما بعدها.

(٩) علي الشابي وآخرون, **الثعالبي وتجديد الفكر الديني**, وزارة الشؤون الدينية التونسية, تونس, ط١, ١٩٩٣م, ص٨٨.

(١٠) تقسيم الكتاب إلى فصول, وكذلك وضع عناوين الفصول؛ ليس من عمل المؤلف, إنّما هو من عمل المترجم, وهو صنيع يشكر عليه, حيث يسّر الكتاب للمطالعة والمراجعة.

(١١) إحميدة النيفر, **الإنسان والقرآن وجهاً لوجه, التفاسير القرآنية المعاصرة, قراءة في المنهج**, دار الفكر, دمشق, ط١, ٢٠٠٠م, ص٧٤.

(١٢) المناوي, محمد عبدالرؤوف (ت١٠٣١هـ), **التوقيف على مهمات التعاريف**, تحقيق: محمد رضوان الداية, دار الفكر, بيروت, ط١، ١٤١٠هـ, ج١, ص١٦٣.

(١٣) الثعالبي, عبد العزيز (ت١٩٤٤م), **روح التحرر في القرآن**, تحقيق: حمادي الساحلي, دار الغرب الإسلامي, بيروت, ط١, ١٩٨٥م, ص٢٩.

(١٤) **المصدر نفسه والصفحة.**

(١٥) **المصدر نفسه**, ص٢٢.

(١٦) **المصدر نفسه**, ص٢٤.

(١٧) أخرجه أبو داود, سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ), **سنن أبي داود**, تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد, دار الفكر, بيروت, كتاب اللباس, باب: فيما تبدي المرأة من زينتها, ج٢, ص٤٦٠, رقم الحديث: ٤١٠٤, وقال: هذا مرسل.

(١٨) الثعالبي, **روح التحرر**, ص٢٣.

(١٩) العظيم آبادي, شمس الحقّ (ت١٣٢٩هـ), **عون المعبود شرح سنن أبي داود**, دار الكتب العلمية, بيروت, ط٢, ١٤١٥هـ, ج١١, ص١٠٩.

(٢٠) الثعالبي, **روح التحرر**, ص٢٤ – ٢٥.

(٢١) الطبري, محمد بن جرير (ت٣١٠هـ), **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**, دار المعرفة, بيروت, ١٩٨٧م, ج١٨, ص٩٥.

(٢٢) الزمخشري, محمود جارالله (ت٥٣٨هـ), **الكشاف**, تحقيق: محمد مرسي, دار المصحف, القاهرة, ج٣, ص١٢٤.

(٢٣) القرطبي, محمد بن أحمد أبو عبدالله (ت٦٧١هـ), **الجامع لأحكام القرآن**, تحقيق: هشام البخاري, دار عالم الكتب, الرياض, ٢٠٠٣م, ج١٢, ص٢٢٨ – ٢٢٩.

(٢٤) الجصاص, أحمد بن علي أبو بكر (ت٣٧٠هـ), **أحكام القرآن**, تحقيق: محمد قمحاوي, دار الكتب العلمية, بيروت, ١٤٠٥هـ, ج٥, ص١٧٤.

(٢٥) الطاهر بن عاشور, **التحرير والتنوير**, الدار التونسية, تونس, ١٩٨٤م, ج١, ص٢٨٩٧.

(٢٦) الثعالبي, **روح التحرر**, ص٢٤.

(٢٧) محمد رشيد رضا, **حقوق النساء في الإسلام وحظهن في الإصلاح المحمدي العام**, المكتبة الإسلاميّة, بيروت, ١٩٨٤م, ص٦ – ٧.

(٢٨) مصطفى السباعي, **المرأة بين الفقه والقانون**, دار الورّاق, بيروت, ط٧, ١٩٩٩م, ص١٩.

(٢٩) القصير,فندي عبد الرزاق, **المرأة المسلمة بين الشريعة الإسلامية والأضاليل الغربية**, مؤسسة الريان, بيروت, ١٩٩٩م, ص١٧.

(٣٠) القضاة, عبدالحميد, **الأمراض الجنسية عقوبة إلهية**, جمعية العفاف الخيرية, عمان, ط٣, ٢٠٠٨م, ص١٦.

(٣١) أخرجه أبو داود, **سنن أبي داود**, كتاب الطهارة, باب: في الرجل يجد البلة في منامه, حديث رقم٢٣٦.

(٣٢) أخرجه الترمذي, محمد بن عيسى (ت٢٧٩هـ), **سنن الترمذي**, تحقيق: محمد أحمد شاكر, دار إحياء التراث, بيروت, كتاب الرضاع, باب: حقّ المرأة على زوجها, حديث رقم١١٦٣.

(٣٣) مارسيل بوازار, **إنسانية الإسلام**, دار الآداب, بيروت, ط١, ١٩٨٠م, ص١٠٨.

(٣٤) ول ديورانت, **قصة الحضارة**, ترجمة: محمد بدران, جامعة الدول العربية, ١٩٧١م, ج١٣, ص٣٠٦.

(٣٥) غوستاف لوبون, **حضارة العرب**, ترجمة عادل زعيتر, دار العالم العربي, القاهرة, ٢٠٠٩م, ص٤٠٤.

(٣٦) العقاد, محمود عباس, **المرأة في القرآن**, نهضة مصر للطباعة والنشر, القاهرة, ط٣, ٢٠٠٥م, ص٦٠.

(٣٧) البوطي, محمد سعيد رمضان, **المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني**, دار الفكر, بيروت, ط١, ١٩٩٦م, ص١٦٥..

(٣٨) الثعالبي, **روح التحرر**, ص٢٩.

(٣٩) **المصدر نفسه**, ص٢٥.

(٤٠) **المصدر نفسه**, ص٢٨.

(٤١) **المصدر نفسه**, ص٢٧.

(٤٢) القرطبي, **الجامع لأحكام القرآن**, ج١٤, ص١٧٨.

(٤٣) ابن عاشور, **التحرير والتنوير**, ج٢٢, ص١٠..

(٤٤) الثعالبي, **روح التحرّر**, ص٢٨. الحديث الذي عناه الثعالبي؛ هو ما روي عن ابن عباس– رضي الله عنهما– عن النبي

ﷺ قال: "لا يخلوَنّ رجلٌ بامرأة إلا مع ذي محرم". أخرجه البخاري, محمد بن إسماعيل (توفي٢٥٦هـ). **صحيح البخاري**, تحقيق: مصطفى ديب البغا, دار ابن كثير, بيروت, ط٣, ١٩٨٧م, كتاب النكاح, باب: لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم, حديث رقم: ٤٩٣٥.

(٤٥) أخرجه ابن حبان, محمد بن حبان بن أبي حاتم البستي (ت٣٥٤هـ), **صحيح ابن حبان**, تحقيق: شعيب الأرناؤوط, مؤسسة الرسالة, بيروت, ط٢, ١٩٩٣م, كتاب الحظر والإباحة, حديث رقم: ٥٥٨٦.

(٤٦) أخرجه مسلم بن الحجاج (ت٢٦١هـ), **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي, دار إحياء التراث, بيروت, كتاب السلام, باب تحريم الخلوة بالأجنبية, حديث رقم: ٢١٧٢.

(٤٧) **المصدر نفسه**, كتاب الجهاد والسير, باب: غزوة النساء مع الرجال, حديث رقم: ١٨١٠.

(٤٨) ابن تيمية, أحمد بن عبدالحليم (ت٧٢٨هـ), **منهاج السنة النبوية**, تحقيق: محمد رشاد سالم, مؤسسة قرطبة, ١٤٠٦هـ, ج٤, ص٣١٧ ٣١٨.

(٤٩) عبد الكريم زيدان, **المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم في الشريعة الإسلامية**, مؤسسة الرسالة, بيروت, ط٢, ١٩٩٤م, ج٧, ص٢٨٩.

(٥٠) ينظر: إيفلين كوبولد, **البحث عن الله**, المكتبة الأهلية, بيروت, ص٢٨.

(٥١) الحفناوي, منصور محمد منصور, **المرأة في المنظور الإسلامي والمنظور الوضعي**, القاهرة, ط١, ١٩٨٩م, ص٢٥٩.

(٥٢) غوستاف لوبون, **حضارة العرب**, ص٤١٥..

(٥٣) الثعالبي, **روح التحرر**, ص٢٣.

(٥٤) **المصدر نفسه**, ص٣٠.

(٥٥) علي الشابي وآخرون, **الثعالبي وتجديد الفكر الديني**, ص٩٠.

(٥٦) عنوانه في الكتاب (العلاقات بين المسلمين والنصارى).

(٥٧) لا يوجد تحريف نصوص في أعمال المفسرين, لأنّ معنى التحريف ينصرف ابتداءً إلى تغيير كلام الله تعالى بالزيادة أو النقص أو التبديل, أمّا المفسِّر فقد يخطىء في الفهم, أو يأتي بتفسير ضعيف أو مرجوح.

(٥٨) الثعالبي, **روح التحرر**, ص٣٧.

(٥٩) **المصدر نفسه**, ص٣٨.

(٦٠) **المصدر نفسه**, ص٣٩.

(٦١) أبوالسعود, محمد بن محمد العمادي (ت٩٨٢هـ), **إرشاد العقل السليم**, دار إحياء التراث, بيروت,ج٣, ص٤٨.

(٦٢) الخازن, علي بن محمد (ت٧٤١هـ), **لباب التأويل في معاني التنزيل**, دار الفكر, بيروت,١٩٧٩م, ج٢, ص٦٢.

(٦٣) الخطيب الشربيني, محمد بن أحمد (ت٩٧٧هـ), **السراج المنير**, ج٣, ص٦٥.

(٦٤) الآلوسي, محمود (ت١٢٧٠هـ) **روح المعاني**، تحقيق: محمد الأمد وزميله, دار إحياء التراث العربي, بيروت, ط١, ١٩٩٩م, ج٧, ص٧.

(٦٥) **المصدر نفسه**، ج٦, ص٤٤٥.

(٦٦) القرطبي, **الجامع لأحكام القرآن**، ج١٨, ص٥٩.

(٦٧) الثعالبي, **روح التحرر**, ص٣٩.

(٦٨) **المصدر نفسه**, ص٤٠ ٤١.

(٦٩) أخرجه أبو داود, **سنن أبي داود**, كتاب العلم, باب الحث على طلب العلم, حديث رقم: ٣٦٤١.

(٧٠) الثعالبي, **روح التحرر**, ص٤١.

(٧١) **المصدر نفسه والصفحة.**

(٧٢) الكلاعي, سليمان بن موسى (ت٦٣٤هـ), **الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء**, تحقيق: محمد كمال الدين, عالم الكتب, بيروت, ط١, ١٤١٧هـ, ج٤, ص١٧٣.

(٧٣) أخرجه أحمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١هـ), **مسند الإمام أحمد**, تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون, مؤسسة الرسالة, ط١, ٢٠٠١م, حديث رقم: ٢٧٤٢. قال شعيب الأرناؤوط: حسن، وهذا إسناد ضعيف لضعف يزيد- وهو ابن أبي زياد الهاشمي مولاهم- لكنه متابع، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح.

(٧٤) الثعالبي, **روح التحرر**، ص٨٨- ٨٩.

(٧٥) الطبري, **جامع البيان**, ج٢٢, ص٦٦.

(٧٦) الثعالبي, عبد الرحمن بن محمد (ت٨٧٥هـ), **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**, مؤسسة الأعلمي, بيروت, ج٣, ص٢٤٧.

(٧٧) أخرجه البخاري, **صحيح البخاري**, كتاب التيمم, حديث رقم: ٣٢٨.

(٧٨) أبو السعود, **إرشاد العقل السليم**, ج٤, ص٢٤٨.

(٧٩) ابن كثير, إسماعيل بن عمر (ت٧٧٤هـ), **تفسير القرآن العظيم**, دار الفكر, بيروت, ١٤٠١هـ, ج٢, ص٤٦٦.

(٨٠) بكر بن عبد الله أبو زيد, **الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان**, ط١, ١٤٢١هـ, ص٢١-٢٢.

(٨١) الثعالبي, **روح التحرر**، ص٩١.

(٨٢) أبو السعود, **إرشاد العقل السليم**, ج٢, ص٤٧.

(٨٣) الثعالبي, **روح التحرر**, ص١١١.

(٨٤) البيضاوي, عبدالله بن عمر (ت٦٨٥ أو ٦٩١هـ), **أنوار التنزيل**, دار الكتب العلمية, بيروت, ط١, ١٩٨٨م, ج١, ص٦٦.

(٨٥) الرازي, محمد بن عمر بن الحسين (ت٦٠٦هـ), **مفاتيح الغيب**, دار الكتب العلمية, بيروت, ط١, ٢٠٠٠م, ج٣, ص٩٨.

(٨٦) ابن عاشور, **التحرير والتنوير**, ج١, ص٥٣٩.

(٨٧) الثعالبي, **روح التحرر**, ص١١٢.١١٣.

(٨٨) الرازي, **مفاتيح الغيب**, ج٨, ص٥٧.

(٨٩) أخرجه مسلم, **صحيح مسلم**, كتاب الإيمان, باب: الإيمان والإسلام والإحسان, حديث رقم:١.

(٩٠) **المصدر نفسه**, كتاب الإيمان, باب: وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته, حديث رقم: ١٥٣.

(٩١) الهدف من هذه الدعوة هو: إبعاد الإسلام وإقصاؤه عن الحياة وإذابة معتقداته, وليختفي الولاء الديني ليصبح الولاء للوطن الذي هو للجميع, فالدين لله والوطن للجميع!!

(٩٢) الأمين محمد أحمد, **التقارب الديني: خطره, مراحله آثاره**, مقال في الإنترنت.

(٩٣) يقول محمد عبده في تفسير الآية (٦٢) من سورة البقرة: "وأمّا أنساب الشعوب وما تدين به من دين وما تتخذه من ملة؛ فكلّ ذلك لا أثر له في رضاء الله ولا غضبه, ولا يتعلق به رفعة شأن قوم ولا ضعتهم, بل عماد الفلاح ووسيلة الفوز بخيري الدنيا والآخرة؛ إنّما هو صدق الإيمان بالله تعالى". ينظر: رضا, محمد رشيد١٣٤٥هـ, **تفسير المنار**, دار الفكر, بيروت, ط١, ٢٠٠٧م, ج١, ص٢٤٣.

(٩٤) الثعالبي, **روح التحرر**, ص١٠٣.

(٩٥) **المصدر نفسه**, ص١٠٤.

(٩٦) **المصدر نفسه**, ص١٠٥.

(٩٧) **المصدر نفسه**, ص١٠٦.

(٩٨) **صحيح البخاري**, كتاب تفسير القرآن, حديث رقم: ٤٣٧٧.

(٩٩) معنى يصاقبه؛ أي: يقرب منه ويجاوره. ينظر: , ابن منظور, محمد بن مكرم (ت٧١١هـ), **لسان العرب**, دار صادر, بيروت, ط١, مادة: صقب.

(١٠٠) ابن عطية, **المحرر الوجيز**, ج٣, ص٣٣٢.

(١٠١) الثعالبي, **روح التحرر**, ص١٠٦..

(١٠٢) القرطبي, **الجامع لأحكام القرآن**, ج١٨, ص٥٦.

(١٠٣) أخرجه أبو داود, **سنن أبي داود**, كتاب الجهاد, باب: في دوام الجهاد, حديث رقم: ٢٤٨٤.

(١٠٤) ابن قدامة, عبدالله بن أحمد المقدسي (ت٦٢٠هـ), **المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل**, دار الفكر, بيروت, ط١, ١٤٠٥هـ, ج١٠, ص٣٩٥..

(١٠٥) **المصدر نفسه**, ج١٠, ص٣٦١.

(١٠٦) الثعالبي, **روح التحرر**, ص١٠٩.

(١٠٧) الزركشي, محمد بن بهادر (توفي٧٩٤هـ), **البحر المحيط في أصول الفقه**, تحقيق: محمد محمد تامر, دار الكتب العلمية, بيروت, ٢٠٠٠م, ج٢, ص٣٥٢.

(١٠٨) **الثعالبي, روح التحرّر**, ص١١٨.

(١٠٩) **المصدر نفسه**, ص١١٧.

(١١٠) أخرجه البخاري, **صحيح البخاري**, كتاب الأنبياء, باب ما ذكر عن بني إسرائيل, حديث رقم: ٣٢٦٩.

(١١١) الثعالبي, **روح التحرر**, ص١٧+ ١١٨.

(١١٢) **المصدر نفسه**, ص١٩.

(١١٣) المقصود بالتأويل المتحرر عند الثعالبي: قطع التفسير عن الجذور, أي تحرره من التقيد بمنهج التفسير المنضبط شرعاً وعقلاً.

(١١٤) ينظر: عبد الرزاق قسوم, **مدارس الفكر الإسلامي العربي المعاصر, تأملات في المنطلق والمصب**, دار عالم الكتب, الرياض, ط١, ١٩٩٧م, ص١٧٩.

(١١٥) الثعالبي, **روح التحرّر**, ص٩٩.

(١١٦) هذا ما جعل المعلق على الكتاب (محمد السلامي) يقول: "فكلّ ما نُسِب في هذا الفصل إلى المفسرين من تزمت وتعصب وضيق أفق, جعلتهم يقولون إنّ الدين الإسلامي هو دين العرب خاصة أو تغذية الروح القومية, كلّ ذلك هو من نسج خيال الكاتب. ولا يوجد أي نص للمفسرين يمكن أن يدلّ من قريب أو بعيد على هذه التهمة الباطلة". ينظر: محمد السلامي, **هامش كتاب روح التحرر في القرآن**, ص١٠٢.

(١١٧) عزب, محمود, **ملامح التنوير في مناهج التفسير**, الهيئة المصرية العامة للكتاب, القاهرة, ٢٠٠٦م, ص٩٠.